مَعَارِكُ حَاسِمَةٌ
فِي حَيَاةِ المُسْلِمِينَ

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

دار اللواء
المملكة العربية السعودية - الرياض - شارع الملك فيصل
ص. ب : ٢٨٥٦ هاتف : ٤٠٢٨٠٨٤ - برقياً : نشر دار

معارك حاسمة في حياة المسلمين

بقلم
الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

دار اللواء
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمَة

الحمد لله رب العالمين.

والصلاة والسلام على محمد الرسول الأمين.

وبعد.

الإسلام دين أحيا الله به قلوباً أماتتها الشهوات.. وأنقذ به عقولاً سممتها الشكوك والشبهات.. وأحل به من الأغلال أفكاراً قيدتها الخرافات وسجنتها التخرصات.. وجدع به أنوفاً شمخت بها الجاهلية الجهلاء..

وهو دين يحبب في الحياة، ولا يزهد فيها.. وينشط للعمل، ويحرض على إستصلاح المعيشة.. ويحث على طلب العلم، ويدعو لاحترامه واستثماره..

وهو دين العقيدة الرائقة، التي تطهر النفس، وتزكي القلب، وتربي الخلق، وتغذي العقل، وتوقف الغريزة عند حدها، وتعطي كل مطمح من مطامح الإنسان. معناه الذاتي وسيره الطبيعي.. والإسلام عقيدة استعلاء.. تبعث في روح المؤمن الإحساس بالعزة من غير كبر، وروح الثقة من غير اغترار..

وهي كفيلة بتعديل القيم والموازين.. والحكم والتقدير.. والنهج والسلوك والوسائل والأسباب..

والإسلام بجانب هذا دين المسالمة مع المسالمين، والردع

للمعادين.. نور يهدي ونار تحرق الطغاة الآثمين..

يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة.. فإذا جد الجد، كان الصخرة التي يتحطم عليها كل جبار عنيد..

ويطلب من المسلمين: أن يكونوا على حذر في وقت السلم.. حتى لا يؤخذوا على غرة..

ويدعو المسلمين: إلى الاستشهاد من أجل عزة الإسلام.. ولا يعدل الجهاد في سبيل الله. مالٌ ولا ولدٌ ولا والدٌ، ولا عشيرةٌ ولا أهل..

والدفاع عن العقيدة والبلاد الإسلامية.. من أسمى أهداف الإسلام.. ولهذا كله.. قال الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ فالاستعداد بما في الطوق.. فريضة الجهاد في سبيل الله.. والإسلام يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وأسبابها..

قوة العقيدة لأنها أسس الفضائل، وقوام الضمائر، وسداد العزائم في الشدائد، وبلسم الصبر عند المصائب، وعماد الرضا والقناعة، ونور الأمل في الصدور، وسكن النفوس إذا أوجشتها الحياة، وعزاء القلوب إذا نزلت بالإنسان نازلة..

والأمة الإسلامية في هذا العصر الذي تكالبت فيه قوى الألحاد والمذاهب الهدامة في أشد ما تكون إلى قوة العقيدة..

وبعقيدتنا القوية.. نستطيع أن نواجه تحديات العصر المسعورة، من شيوعية واشتراكية، وصليبية، وصهيونية..

وقد تعلمنا من المعارك التي خاضها المسلمون، وانتصرت فيها الجيوش الإسلامية سواء في غزوة بدر، أو القادسية أو اليرموك أو عين جالوت أو العاشر من رمضان.

إنّ الوسائل المادية ليست وحدها هي التي تفصل في المعارك.. ولا يوجد ما يصون الاستعداد العسكري سوى العقيدة.. لأنها هي التي تربط القلوب بالله وتصل قوة المجاهدين بالقوة الكبرى التي لا تغلب.. ولو انتظر المسلمون في غزوة بدر الكبرى، حتى تتكافأ قوتهم، وقوة خصومهم، ما قامت للمسلمين قائمة. إنما القلة المؤمنة بعقيدتها.. استعدت بقدر ما استطاعت.. ثم خاضت المعركة، فكان فيها الفرقان، قال تعالى في سورة التوبة: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم﴾.

وقال تعالى في سورة الصف: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تـؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾.

وفي هذه الآية ينادي رب العزة، الذين آمنوا.. وخطاب المؤمنين بصيغة الذين أمنوا هو أمثل أنواع الخطاب، أبانة لحقيقتهم.. هذا بجانب ما ينطوي عليه من الدلالة على السمو والفضل..

وفي النداء: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ زيادة إيناس وتكريم للمؤمنين بعقيدتهم وأحب إلى الإنسان هو: أن تناديه بما يدل على تكريمه.. والله سبحانه وتعالى يشعر بهذا النداء المؤمنين بأنه يخاطب أقرب الأشياء إلى المسلمين.. فما في الإنسان شيء أقرب إلى الله، من الإيمان به..

والله سبحانه وتعالى حينما يتوجه إلى المؤمنين من خلال إيمانهم بصيغة فعل الأمر مثل قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ أو بصيغة النداء مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا..﴾ يكون التالي..

تعليماً بموجبات هذا الإيمان، وحثا على القيام بها، في أي شأن من الشؤون وفي أي درب من ضروب الحياة..

ومن هذا ندرك أن الإسلام قد انطوى على طاقة فعالة، جعلت منه قوة هائلة بل أن فاعلية الإسلام شملت حياة المسلمين في جميع جوانبها.

فما أجدر أبناء الأمة الإسلامية.. أن يهتموا بتعاليم الإسلام، وآدابه، ويتمسكوا بما جاء به من توجيهات وإرشادات.

وللأمة الإسلامية في عقيدتها قوة لا تدانيها قوة في القضاء على تخريف الملاحدة وسماسرة الشيوعية.. وسوف نصل إلى خير ما قدر بإذن الله.

وإن الرغبة الصادقة تدفع بنا إلى أن نلقي نظرة صادقة على مجد هذه الأمة في ماضيها.. فالمسلمون كما برعوا في علوم الدين. قد تعمقوا كثيراً في علوم الحياة والحضارة الإنسانية..

والقرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد، فهو يوقظ القلوب، ويصلح العيوب، ويشرح الصدور، وهو أعظم مرشد إلى الفلاح، من تدبره فاز بسعادة الدنيا والأخرة ومن درس الحقائق العلمية والتاريخية التي أشار إليها، علم أن هذه الحقائق هي سر الإعجاز.

وإذا كانت الأمة الإسلامية تخطو على طريق مجد الأسلاف فهذا هو التاريخ الإسلامي، يضيء الطريق، ويبين في وضوح قيمة الأسلوب العلمي في غزوات الرسول ﷺ والمعارك التي خاضها المسلمون..

والمنهج أو الأسلوب العلمي هو الطريق الواضح الذي يصل به الإنسان إلى غايته التي يقصدها..

وبمعنى آخر: هو مجموعة من القواعد العملية المنتظمة من أجل الوصول إلى الحقيقة والمسلمون التزموا بالمنهج العملي في كل ما يمس جوانب الحياة..

والوقائع التاريخية في حياة المسلمين كثيرة. وقد اخترت بعضها لإبراز الأساليب العلمية التي التزم بها المسلمون استرشاداً بالقرآن الكريم وتعاليم الرسول الأمين وقد قرأت ودرست وبذلت جهداً صادقاً لإعطاء هذه المعالم ما تستحق لتكون ومضات مشرقة في الطريق..

فإن كنت وفقت فيما بحثت فيه ووصلت إليه من نتائج، فما ذلك إلّا من الله سبحانه وتعالى.

والله ولي التوفيق

المؤلف
د. أحمد عبد الرحيم السايح

ضرورة الإستعداد

الجهاد أصله لغة: المشقـة. وهو مشتق من الجهـد «بفتح الجيم ـ وهو التعب والمشقة، لما فيه من تحملهما بعسر. وقيل مشتق من الجهد ـ بضم الجيم وهو الطاقة. ويقال: جاهدت جهاداً أي بلغت المشقة. .

وقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿لا يجدون إلّا جهدهم﴾ وفي سورة الأنعام: ﴿واقسموا بالله جهد إيمانهم﴾. . أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم. والاجتهاد: أخذ النفس ببذل الطاقة، وتحمل المشقة في العبادة. يقال: جهدت رأيي واجتهدت: أتعبته بالفكر. .

والجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العـدو. قال ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله». . وكان إذا رجع من الغزو يقول: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

ويقول الشاعر:

يا من يجاهد غازياً أعداء دين الله ... يـرجـو أن يـعـان ويـنـصـرا
هـلا غشيت النفس غـزوا أنهـا ... أعـدى عدوك كي تفـوز وتـظفـرا
مهمـا عنيت جهـادهـا وعنـادهـا ... فلقـد تعـاطيت الجهـاد الأكبـرا

وقال آخر في الجهد ومعنييه:

تعاليت عن قدر المـدائح صـاعدا ... فسيان عفو القـول عندك والجهـد
وإنـي لأدري أن وصـفـك زائـد ... على منطقي لكن على الواصف الجهد

وإن قليـل القـول يكثـر وقعـه   إذا عـرفت فيـه المـوالاة والـود

والجهاد جهادان: جهـاد في الحرب، وجهـاد في السلم. فالأول مجاهدة المشركين، والآخر هو جهاد النفس، والشيطان، والفساق. قال البوصيري:

وخالف النفس والشيطان واعصهما   وإن همـا محضاك النصـح فـأتهم

وإن مجاهدة النفس هي تعلم أمور الدين. ثم على العمل بها، ثم على تعليمها وأما مجاهدة الشيطان، فعلى دفع ما يأتي من الشبهات، وما يزينه من الشهوات.. وأما مجاهدة الكفار، فتقع باليد والمـال واللسان والقلب..

قال ﷺ: «جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم».

وأما الفساق. فباليد، ثم اللسان، ثم القلب..

قال ﷺ: «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم»..

والدارس لمسيرة التاريخ الإسلامي، يلاحظ أن الخصومة ضد الدين الإسلامي بدأت منذ بدأ الدين نفسه. وأخذت الخصومة تزداد شدة وعنفاً، ويزداد الخصوم المناوئون للدين بغياً وعدواناً، وظلماً وطغياناً. كلما ازداد هذا الدين اتساعاً وانتشاراً.. فلم يكن بد من أن يعتمد الإسلام طريق الجهاد في سبيل الله عز وجل وسيلة لرد البغي والعدوان وسبيلاً لقمع الظلم والطغيان.. ولكي تنزاح العوائق من طريقه، فيظل سائراً فياضاً، ينشر العدل، والمساواة، ويفشي الأمن، والاطمئنان، ويرحم المحتاجين، ويكفكف الطغيان..

ولقد أقبل المسلمون على هذا الميدان الشريف ـ ميدان الجهاد في سبيل الله إقبالاً عظيماً. كان كل منهم يعتبر شرفاً أن يشترك في قتال أعداء الله. أعداء الحق الذين يخاصمون الإسلام، ويجردون السيف في وجهه. ويقفون حجر عثرة في سبيل امتداده ونشره..

وكان لسان حال كل منهم قول القائل:

ولست أبـالي حين أقتـل مسلمـاً على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلـك في ذات الإلـه وإن يشـأ يبـارك على أوصـال شلو ممـزع

لقد كانت العقيدة الإسلامية في حياة المسلمين، هي النافذة التي يطلون منها على العالم بمن وما فيه.. كما كانت العقيدة ذاتها هي المنظار، الذي ترى بواسطته كافة حقائق العلوم والوجود.. وإن مصدر الفاعلية في العقيدة الإسلامية، كان الأساس الفكري والروحي لإطار عملي تطبيقي، يحدد لإنسان العقيدة «المؤمن» بها «والمؤتمن» على سيادتها. أسلوب تعامله مع الأغيار..

وقد علمنا التاريخ والمنطق أن الموقف العلمي لا يكون علمياً ما لم يحكم بحركة الإنسان وتواجداته، وإلا فهو موقف نظري ليس مكانه ساحات الجهد والجهاد، والمخمصة والممارسة والمعاناة..

لقد كان المسلمون يقبلون على الجهاد في سبيل الله لوجه الله وبإخلاص منقطع النظير..

وكان المجاهدون يقبلون على القتال في سبيل الله ثابتين، صابرين على ما يصيبهم، قد تركوا وراءهم الدنيا بلهوها ولعبها، وخرجوا إلى الميدان يحملون أرواحهم على أكفهم مجاهدين تتوق قلوبهم إلى الشهادة..

وكانوا يحرصون على الموت في ساحة الجهاد أكثر من حرصهم على الحياة، ويتمنون الاستشهاد تمني الظامىء للماء..

والإسلام يرمي من وراء مبادئه، وتعاليمه، وإرشاداته، ونظمه، إلى إيجاد أمة قوية متماسكة، عزيزة الجانب، موفورة الكرامة، يتساوى أفرادها في الحقوق والواجبات، وتتعاون على ما يجلب لها الخير، ويدفع عنها الشر، وتتضافر جهودها على إعلاء كلمة الله، لنتمكن من أقلمة دولة الحق في الأرض.

ومن أجل ذلك كان الجهاد في الإسلام لإعلاء كلمة الحق، ومطاردة

الباطل وكان على الأمة أن تعد ما تستطيع من قوة، لتصبح شديدة الشوكة، قوية البأس، مرهوبة الجانب، قادرة على الدفاع عن نفسها، ومواجهة كل عدو يعتدي عليها، أو يقف في سبيل الإسلام..

حقاً إن الإسلام حين يضطر إلى القتال، فإنما يمارس أشرف أنواع القتال. ذلك الذي لم ولن تعرف الدنيا له عدلاً، ولا نظيراً من قريب أو بعيد. من حيث أسبابه وبواعثه، وأهدافه وغاياته، وملابساته، وظروفه، وتقاليده، وآدابه. ذلك أن أسبابه جميعها تلتقي عند خط الدفاع، ودرء العدوان، ورد الهجوم، واسترداد الحق السليب، والكرامة المهيضة، والأمل الشريد، واقتلاع جذور الظلم، وانكسار حدته، وانحسار موجته..

ولولا أن يكون هذا من أسباب الجهاد في الإسلام، وبواعث مشروعيته لاعتلت المفاهيم واختلت الموازين، واضطرب أمر الحياة، ولخلا وجهها من الحق وجنده..

وتلتقي بواعث الجهاد أيضاً عند درء الفتنة إذا ذر قرنها، واستيقظ شرها وتطاير شررها.. وذلك لأن طاقات النفس محدودة، وقدراتها تحت مطارق الفتن، وصروف الهوان قاصرة. إن القتال حينئذ حبل إنقاذ ينقذ المحطومين، ويمنع المتآمرين من التوسع والمزيد..

والإسلام حين يأمر بالقتال وفي نطاق الضرورة، والضرورة القصوى، يقاتل في معركة شرف، وقضية نبل، وليس في الوجود كله أشرف منها ولا أنبل.

والقتال في الإسلام أكبر الفضائل الإسلامية، لأنه تقديم النفس للموت في سبيل الإسلام. وهو أشق الفضائل احتمالاً. والباعث عليه فضيلة. لأن الباعث إما رد الاعتداء.. ولا يقبل الاعتداء وهو يستطيع دفعه إلّا الذليل.. وإما تأمين الدعوة الإسلامية وفتح الطريق أمامها..

وإذا كان الجهاد فضيلة إنسانية فلا يصح أن تنتهك حرمة الفضيلة في

أثنائها. . والفضيلة الإسلامية واجبة الرعاية، في الحرب والسلم، ورعايتها في الحرب يعلي من قدر من يتمسك بها. إذ هو يتمسك حيث اشتجرت السيوف ووقعت الحتوف. .

لقد كان الأمر بالقتال في الإسلام قائماً على القيم الرفيعة. فقد أراد هذا الدين أن يرتفع بالناس من عبادة العباد، إلى عبادة رب العباد. . أراد أن يحطم الطواغيت المادية والمعنوية في الداخل والخارج وأن يجعل الخضوع لله وحده لا يشاركه فيه مشارك ولا ينازعه فيه منازع. فلم يكن القتال في الإسلام إذن غرضاً بذاته، وإنما كان وسيلة لتحقيق هدف سام. .

وإذا تأملنا الآيات التي تتحدث عن القتال في كتاب الله، وجدنا أنها بثت روحاً ومفهومات في غاية السمو والقوة. وذلك لترفع من معنويات الأمة الإسلامية، وتحميلها على الجهاد الذي لا يفتر، والثبات في سبيل الله. وهي بذلك تسبر أغوار النفس الإنسانية لتعالج ما فيها، وتحملها على تجدد الطاقات، وشحذ الهمم. .

إن القتال في سبيل الله ضرورة لا غاية، ووسيلة أخيرة، يلجأ إليها الإسلام إن أعوزته الوسائل. . ومعروف لدى الملتزمين أن الضرورة تقدر بقدرها، ولا تمارس إلا متعينة وفي أخص الظروف وأمسها وأقساها. .

والإسلام لا يقبل من المسلمين أن يقاتلوا من هادنهم، أو سالمهم، أو عاهدهم أو وادعهم. . إنما يأمر بقتال من قاتلهم وناوئهم أو عاداهم وخاصمهم. . دون تحامل من المسلمين أو تحايل أو تربص أو استفزاز. .

يقاتل المسلمون في إطار الضرورة الملحة أهل الظلم والطغيان، والجبروت، وأصحاب القهر، والعسف، والتسلط، وذوي الغدر والخيانة، والماردين، وأهل الخسة والتآمر، والضالعين في الخصومة واللجاجة، والمروق والدناءة، يقاتلهم المسلمون المعتزون بإسلامهم، ويمتشقون الحسام عليهم، ويسلون السيوف في وجوههم.

ما رفعوا في وجه الإسلام عقيرتهم وناؤوا ظهره بسخائمهم، وكدروا صفوه بأرجاسهم، ووضعوا في ميدان مَدِّهِ السدود والعقبات، وزرعوا في طريق سفينته الجنادل والصخور وصادروا الحريات والكرامة والعقائد، وطمسوا في الإنسان إنسانيته، وعفنوا جو الحياة بوثنهم وعفنهم في مجالات السلوك والعقيدة، والخلق والحكم، والتشريع..

ومن الثابت لدى الباحثين أن الصراع بين الأحياء من طبيعة الحياة.. وقوى الشر، والإلحاد، تعمل دون هوادة، والمعركة مستمرة، بين الخير والشر والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان، والشر جامح، والباطل مسلح.

ومن هنا ولهذا حرص الإسلام على أن يكون المسلمون على استعداد لمواجهة الباطل، وقوى الإلحاد، والإضلال والطغيان. مهما تكن التضحيات في النفس والأهل والمال.

والمواجهة بين الحق والباطل ضرورة مؤكدة. وقد أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾.. وحتمية المواجهة تستدعي ضرورة الاستعداد.. وليس شرطاً أن ينتظر المسلمون حتى يروا إمارات الشر والعدوان.. إنما على المسلمين أن يدركوا طبيعة الحياة، من واقع الناس، فيبذلوا قصارى الجهد في إعداد القوة. وإلى هذا يوجه القرآن الكريم المؤمنين بقوله في سورة الأنفال: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾.

فالاستعداد بما في الطوق هو فريضة الجهاد في الإسلام. والقرآن الكريم يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وأسبابها..

ومن إعداد القوة: التمسك بالعقيدة التي اشتمل عليها القرآن الكريم،

وأرسى قواعدها وأصولها الرسول الأمين محمد صلوات الله وسلامه عليه . .

والعقيدة الإسلامية تبعث في روح المؤمن القوة الدافعة إلى كل خير، وتملأ القلب بالثبات واليقين. وفوق هذا فهي أعطف شيء على الإنسان، وأحنى آسٍ عليه يعتصم بها الإنسان ويستسهل بها صعوبات الحياة . .

إنها عقيدة التوحيد والتنزيه. تحمل للنفس الإنسانية روحاً من الآباء لا يقدر على الإتيان بمثلها غيرها . . عقيدة تحبب في الحياة السليمة، وتبث في الأفئدة حرارة الشم والحمية . . والآية الكريمة: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ تشتمل فيما تشمل من قوى على قوة العقيدة. لأن الوسائل المادية وحدها ليست هي التي تفصل في المعارك الحربية. وكثيراً ما تنفلت موازين أعصاب المحاربين. فيولون هاربين ولا يوجد ما يثبت الأعصاب ويقويها كالعقيدة الإسلامية التي تصل القلوب بالله سبحانه وتعالى، وتصل قوة المجاهدين بالقوة الكبرى التي لا تغلب . . والله يأمر المؤمنين بالاستعداد لدفع العدوان، وحفظ الأنفس والعقيدة والبلاد، والحق، والفضيلة ويكون ذلك بأمرين:

الأمر الأول: إعداد المستطاع من القوة ويختلف باختلاف الزمان والمكان.

الأمر الثاني: المرابطة في ثغور البلاد لحراسة الحدود. إذ هي مداخل الأعداء ومواضع مهاجمتهم.

والحكمة في هذا أن يكون للأمة الإسلامية جند دائم الاستعداد، مستعد للدفاع عنها إذا فاجأها العدو.

والأعداء: أعداء العقيدة والحق. إذا علموا استعداد المسلمين وتأهبهم للجهاد خافوا وتهيبوا، وإلى هذا يشير أبو تمام:

وأخافكم كي تغمدوا أسيافكم إن الدم المغير يحرسه الدم

وهذا الخوف يفيد المسلمين من وجوه:

أولاً : يجعل أعداء المسلمين لا يعينون عدواً آخر عليهم. .

ثانياً: يجعل الأعداء يؤدون الالتزامات المطلوبة من مراعاة وأداب ومعاهدات واستيراد وتصدير، واستثمار. .

ثالثاً: ربما حض ذلك على دخول كثير في الإسلام. .

وإعداد القوة في الإسلام والتي جاء الأمر بها. ليس المقصود بها إعداد قوة مماثلة لقوة الأعداء. لأن فريضة الجهاد في الإسلام لا تنتظر حتى يتم إعداد قوة مماثلة لقوة العدو. لأن ذلك قد يطول. . ولو انتظر المسلمون في غزوة بدر الكبرى حتى تتكافأ قوتهم وقوة عدوهم، ما قامت لهم قائمة. . إنما القلة المؤمنة بالله والمعتزة بعقيدتها اعتزازاً يفوق كل اعتبـار. استعدت بقدر ما استطاعت. ثم خاضت المعركة، فكان فيها الفرقان. .

والآية الكريمة التي أمرت بإعداد القوة فيها كلمة «ترهبون» وقد جاءت بصيغة الفعل المضارع. تشير إلى الغرض من إعداد القوة، وهو إلقاء الرهبة في قلوب أعــداء الله، وأعــداء المسلمين المعلومين منهم للمسلمين، والمجهولين، والمتخفين. وكم للمسلمين والإسلام من أعداء.

فالأحزاب الهدامة، والأفكار الإلحادية، والتبشير الصليبي، والصهيونية كلها تشكل حرباً خطيرة ضد المسلمين والإسلام. . وهؤلاء ـ ولا شك ـ ترهبهم قوة الإسلام في نفوس المسلمين، وقوة المسلمين في المجتمعات الإسلامية، ولو لم تمتد إليهم.

والآية الكريمة: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ على إيجازها الدقيق، واختصارها المحكم، قد جمعت أنواع الإعداد للجيوش التي تتلاءم مع كل عصر، وزمن. كالإعداد المادي، والإداري، والفني، والمالي، والتخطيط، والدراسة الموضوعية ـ لمقتضيات الأحوال. . والإعداد بكل ما تشمله كلمة إعداد من معنى ومفهوم ومدلول. .

وإن أي تصور يجنح إلى قيام الحياة في المجتمعات الإسلامية دون

هذا الاستعداد وَهْم يؤدي إلى الضعف، والذوبان، والانسلاخ.. والله سبحانه وتعالى لا يرضى أن يكون حملة الإسلام، وحماة الدعوة الإسلامية من الجامدين الكسالى الذين ينتظرون النصر لمجرد أنهم مسلمون..

والأمة الإسلامية في أشد الحاجة إلى استيقاظ كل الخلايا فيها واحتشاد كل القوى وتوفر كل استعداد، وتجميع كل الطاقات، كي يتم النمو، ويكمل البناء. لأن تحركات الأعداء لا تتوقف، وتكالب الأعداء يزداد شراسة وسعاراً.. ولا جرم فإن الحق الأعزل ضائع. ولا بد للحق من رجال وقوة. لا لتذود عن الحق فحسب. بل لتطاول الباطل..

ولكن أي قوة تلك التي يمتدحها الإسلام، ويطالب المسلمين أن يتسلحوا بها؟ إنها ولا شك ليست القوة الباغية الظالمة، إذ رسالة الإسلام حرب على البغي والظلم والعدوان..

إذن لهي بالتأكيد: القوة الواقفة بالمرصاد لأهل الإلحاد والمادية والفساد والتخريب.

والقوة التي يمتدحها الإسلام: قوة الجسم، وقوة العقل، وقوة العلم، وقوة الروح، وقوة الخلق، وقوة العزيمة، وقوة الإرداة..

ولقد كان لأجدادنا المسلمين الأوائل فضل التأسيس للحضارة الإنسانية وفضل شق الطريق للفتوحات الإسلامية في ميادين العلم والاجتماع والاقتصاد والطب والزراعة والصناعة وغير دلك من فنون جاءت ثمرة من ثمرات الجهاد في الإسلام.

وقد عاش المسلمون عصورهم أعزاء أقوياء أغنياء كل ذلك بفضل عامل الاستعداد والإعداد، الذي لم يكن مجتمع من المجتمعات الإسلامية يخلو من تشجيعه..

وقد كان للمسلمين الأولين تاريخ عظيم، سطروه بدماء الشهداء والمجاهدين ولا تزال صفحات التاريخ الإسلامي لألاءة تزخر بكل أحداث

العز. فقد برز في الإسلام رجال تفوقوا حتى على أنفسهم، فأظهروا شجاعة أصيلة وشهامة نبيلة، وبطولة فذة، وفدائية نادرة. هؤلاء المسلمون رباهم الإسلام على كتاب الله، فتخلقوا بأخلاقه وتأدبوا بآدابه، وأخذوا أنفسهم بشرائعه وأحكامه، واغترفوا من نبعه الطاهر.

وما ظنك بمن يكن كتابه القرآن الكريم، ورسوله محمد ﷺ، ومدرسته الإسلام الحنيف.. لا بد أن يكون في قمة القمم السامية خلقاً وفعالاً، وحركة وجهاداً.

وقد كان هؤلاء كذلك. فبأعمال هؤلاء الأبطال سقط البغي والطغيان، واندك صرح الظلم والجبروت وانزاحت العوائق من طريق الدعوة الإسلامية، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ووطدت دعائم الأمة، وقويت شوكتها، وارتفعت خفاقة..

ولولا بطولة المسلمين لظلت الجاهلية العربية، والرومية، والفارسية، والفرعونية تنيخ على صدر البشرية بكلكلها، وتضغط بكل ما لديها من عهر ومجون واستهتار.

ولولا فدائية المسلمين لبقيت شعوب العالم ترتكس في هوان، وتتردى من ذل إلى ذل، ومن جهالة إلى جهالة..

ولولا أن باع المسلمون الأوائل أنفسهم في سبيل الله لتخلفت مواكب الحضارة الإنسانية.

ويقرر الباحثون والدارسون لأحوال الأمم والشعوب أنه في معركة المصير للأمم والحضارات عناصر ثلاثة طبيعية وأساسية وضرورية. وهناك عناصر ثانوية تساعد على استدامة الحضارات والعناصر الثلاثة الطبيعية الأساسية التي لا بد منها للأمة التي تكون لها القيادة والريادة هي:

أولاً : الأرض الكافية الواقية.

ثانياً: العدد الكافي.

ثالثاً: الوحدة الفكرية الوجدانية الضامنة جمع القلوب.

وكل نقص في غير هذه الثلاثة من علم، وتصنيع، وتسليح، يمكن تلافيه مع الزمن.

أما الأرض الكافية فتلك التي تضمن الاكتفاء الذاتي للأمة القاطنة فيها، بالموارد الطبيعية: المائية والنباتية والمعدنية الصالحة للغذاء والوقود والتصنيع والتسلح.والحرب فلا تحتاج الأمة معها إلى سواها من الأمم.. وأن تكون الأرض منفتحة على العالم بحراً وبراً. وأن تكون الأرض مستعصية بسعتها، وتنوع مناخاتها، على الفناء الشامل بالكوارث الطبيعية المختلفة، كالجفاف والصقيع، والزلازل..

أما العدد الكافي فالمراد به: ما يضمن للأمة معيناً لا ينضب من البشر، الذين يمدون الجيوش مهما طالت الحرب.

والوحدة الفكرية يقصد منها تلك التي تجمع قلوب أفراد الأمة حول هدف واحد..

وبكل تأكيد لا توجد أمة على وجه الأرض بل في تاريخ الأرض قد اجتمعت لها هذه العناصر الطبيعية الأساسية الثلاثة بأمر الله أكثر ما اجتمع للأمة الإسلامية.

وإن الأمة الإسلامية تملك من الطاقات البشرية، والإمكانيات المادية، والمواقع الاستراتيجية، ما يمكنها من أن تكون أعظم قوة في الأرض. لا لتضرب في عتو وتجبر ولكن لتقيم العدل بين الناس وتنشر الأمن والسلام والاطمئنان وترد كيد الكائدين..

وهناك عنصر لا يتوفر لأمة كما يتوفر للأمة الإسلامية وهو رابطة الأخوة الإسلامية القائمة على أساس الإيمان بالله وبرسالة محمد عليه الصلاة والسلام..

وأخوة المسلمين على اختلاف أقطارهم، وأعراقهم، وألوانهم، ومصالحهم الدنيوية ليست من نوع الأخوة الوطنية، ولا من نوع العصبية، ولا

من نوع الرابطة الاجتماعيةالتي تشد الأواصر بين الخلطاء والشركاء، حول مصالحهم الاقتصادية والمعاشية. .

ولكنها أخوة من صميم العقيدة. لا يتم إسلام المسلم، ولا يتحقق إيمانه إلا إذا استقرت في قلبه استقراراً وجدانياً، ينسى معه كل مصلحة شعوبية، أو مذهبية، أو عصبية أو إقليمية، أو عائلية أو شخصية، أو اقتصادية، أو معاشية، حتى يجعل هذه المصالح كلها غير ذات بال إذا تعارضت مع تلك الأخوة الإسلامية.

إن الأخوة الإسلامية الصادقة تستطيع أن تقضي على الفتن، ومن يهددون الأمن ويقلقون السلم. .

والأخوة الإسلامية حرب لمن يدسون الدسائس، ويزرعون الوقيعة، ويبثون الخدع وينشرون الأراجيف، وينفثون السموم، ويروجون لأساليب الهدم والدمار من المذبذبين وذوي الضمائر الفاسدة، والذمم الخربة، وأهل النكث والخيانة.

والجندية في الإسلام تعمل على الغوث، والنجدة، والشهامة، ورعاية الحقوق وتعهد الذمم، وتوطيد العلائق، وتوثيق الصلات بين أهل الإسلام، ومشاركة المسلمين في السراء والضراء. . ففي قلب كل مؤمن زرع فيه الإيمان. مركز استشعار تسجل ذبذباته ومؤشراته خواطر الحق، وحاجات المسلمين، وتهتز أجهزته ملبية على أوسع مدى وأسرع وقت بالغوث والتعاون. .

وإذا كانت الأمم تتكاتف لتكبر في قوى ومعسكرات ومناطق نفوذ فأولى بالمسلمين أن يجتمعوا على الإيمان، وأن يتناصروا على الحق والخير والعدل، والإنصاف ليكونوا القوة القادرة على استرداد الحق، والكرامة. .

وأمتنا الإسلامية تملك من أسباب التقدم والريادة ما يؤهلها لأن تكون خير أمة أخرجت للناس، ومن ذلك أن الله سبحانه وتعالى حباها بأعظم

النعم، إذ تتربع على كنوز ثمينة، وتربض على ثروات معدنية هائلة، وتملك من حقول البترول أجداها نفعاً، وأكثرها سخاءً وثراء، وأقواها تدفقاً وعطاء.. كما أنها تمتلك من شواطىء البحار والأنهار، والممرات، والطرق البرية والبحرية والجوية ما يجعلها في مركز القيادة، ويمكنها من الإشراف والتحرك الفعال.. وكان من فضل الله على الأمة الإسلامية أن جعلها في مناطق الثقل العالمي لتؤدي دورها المؤثر في صدق وفاعلية..

وما علينا لنبلغ ما نريد إلا أن نتمسك بالإيمان الكامل، واليقين الثابت الذي ـ لا يتزعزع أمام أعاصير النكبات والبلاء، مهما كانت قوية وشديدة.. ونعمل في سعي متواصل لإقرار مبادىء الحق والعدل، والانتصار لدين الله عز وجل ونخلص لوجه الله فلا نبغي بأعمالنا شهرة ولا جاهاً.

والقتال في الإسلام والجهاد في سبيل الله مجرد من كل غاية أرضية، ومن كل دافع شخصي، ليتمخض خالصاً لله، لتحقيق كلمة الله، ابتغاء رضوان الله، فإعداد القوة المادية والمعنوية، أمر لا بد منه للمسلمين. والقوة المعنوية في الإسلام لها تأثيرها وأثرها والجهاد له إحدى الحسنيين..

ويهيء القرآن الكريم نفوس المسلمين لهذا المعنى، فيورده بأسلوب التشويق حتى يكون شعار المؤمنين في الحياة.

قال تعالى في سورة الصف: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾. فالإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله بمنزلة التجارة يربح فيها المؤمنون رضاء الله، ونيل جنته. وذلك خير من أي تجارة أخرى. وثمة خصلة أخرى يحبها المؤمنون في الدنيا مع ثواب الآخرة، وهي النصر على الأعداء. وهكذا تضيف آيات سورة الصف إلى الفوز بالجنة

ثمرات يحبها المؤمنون من وراء هذه التجارة مع الله وهي النصر، والفتح في الدنيا. ذلك أن المجاهد حين يقاتل فيقتل أو يقتل فإنما يصنع الحياة الحرة الكريمة. قال تعالى في سورة آل عمران:

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ وهذا يعني أن أسلوب الجهاد ضرورة من ضرورات الحياة الكريمة، وأي تقصير في التهيؤ والاستعداد والجندية. يعرض الأمة لأخطار كثيرة، ويفقدها مميزاتها في الحياة. والمؤمن في عملية الجهاد والتجنيد والاستعداد للدفاع. كأنه عقد مع الله سبحانه وتعالى صفقة، أعطى فيها وبها لله كل شيء، ليفوز بجنة الله التي أعدها للمجاهدين قال تعالى في سورة التوبة: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾.

ومن المسلم به أن الجهاد المنشود في الإسلام لإعلاء كلمة الله، وحماية الأوطان وحماية المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، يجعل دعوة الإسلام جهيرة في مسامع الدنيا، ويبدي لكافة الناس أن شريعة القرآن الكريم، شريعة الاعتزاز بنفسها وتعاليمها وأهدافها، شريعة نهوض على دعائم الحق، وطموح وثاب. وليست شريعة هوان وانكماش وتخلف كما يحاول تصويرها بذلك أولئك الجهلاء أو المغرضون المتجاهلون.

وإذا تأملنا الآيات التي تتحدث عن الجهاد، والقتال والحرب في القرآن الكريم أدركنا أموراً هامة، وذات عمق كبير.

منها: إن القتال وإن كان غير محبب للنفس الإنسانية. إلّا أن فيه خير المؤمنين وعزهم، ما دام قائماً على نصرة دين الله، وإعزاز كلمته، فالله سبحانه يعلم أن القتال مكروه للنفس الإنسانية بحكم أحاسيسها الفطرية وأنه مكروه لدى المؤمنين باعتبارهم بشراً يحسون بالأحاسيس والمشاعر التي

يحس بها أمثالهم من البشر عادة. وليس الكره للقتال ناشئاً عن عدم رغبتهم في نصرة دين الله أصلاً، وإنما هو ناشىء عن طبيعة الفطرة البشرية التي تؤثر العافية، وتميل إلى السلامة قال تعالى في سورة البقرة:

﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾.. ولكن القرآن الكريم لم يتركهم على هذا الحال بعد أن قرر لهم الحقيقة الفطرية التي لا مراء فيها. بل زودهم ـ كما تذكر رسالة الإسلام ـ بتلك الحكمة التي لا تقبل جدلاً، ولا تحتمل نقاشاً وهي:

«إن حبهم للشيء أو بغضهم له، ليس هو المقياس الصحيح لنفعه أو ضره. فربما كرهوا شيئاً وفيه خير لهم، أو أحبوا شيئاً وفيه شر لهم. وإنما الله وحده الذي يعلم حقيقة ما يضر وما ينفع، وهم لا يعلمون ذلك، ولا يدركون حقيقته».

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾..

فإذا كان القتال مشقة وجهداً وأذى مادياً ظاهراً فإن ما يبذل فيه لا يقاس بما يؤول إليه بعد ذلك، حين يكلل بالنصر، والفوز. إذ فيه إحقاق حق، وإبطال باطل وإقامة فكر قويم وذلك أسمى ما تطمح إليه الإنسانية في مسيرتها نحو الخير والسعادة..

وثم أمر آخر أراد القرآن الكريم أن يقرره في نفوس المسلمين. وهو أن إيثار العافية والسلامة على الجهد والمشقة لا يحقق من أهداف الدين ما يحققه الجهاد ومواجهة الأعداء.

وثمة أمر ثالث علينا أن ندركه وهو أن قتال المؤمنين إنما هو قتال في سبيل الله لا في سبيل غيره.

فلقد حدد القرآن للقتال سبيلاً ورسم له منهجاً، ووضح له أصولاً، فالقتال الذي أراده القرآن، وأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يحرض

المؤمنين عليه. ليس قتالاً غير مرسوم، ولا هو محدد المعالم، بل هو قتال واع، يتسم بالغاية النبيلة، والسبيل الواضحة. إذاً هو قتال في سبيل الله: قال تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾..

فالمسلمون يقاتلون في سبيل الله. قال تعالى: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾..

ولا شك أن هذا يضع حداً فاصلاً بين ذهنية المؤمنين وأهدافهم وبين ذهنية الكافرين وأهوائهم... وقد أثر ذلك في النتائج التي تمخضت عنها المعارك التي خاضها المسلمون مع أهل الكفر.

وكأن كلمة (الجهاد) التي أوجدها الإسلام مصطلحاً لهذا القتال الهادف حصيلة منهج قويم. وكلمة «الجهاد» البديل الأمثل الذي ينزه القتال في الإسلام عن ذلك النوع الذي يخوضه الجاهلي في كثير من الأحيان مدفوعاً بدوافع متباينة من شخصية ذاتية أو اتباعية تقليدية، أو عاطفية غير إنسانية..

فلقد حدد الإسلام أن يكون القتال في سبيل الله.. فليس القتال حمية أو عصبية أو رثاء أو أنفة أو لأي شيء من هذا السبيل. وإنما القتال من أجل العقيدة هو القتال في سبيل الله.. وما كانت أسباب القتال راجعة يوماً إلى عدوان منه، أو بغي، أو تسلط، أو إكراه.. وما كانت أيضاً هجوماً ولا معاداة، ولا باطلاً..

إن الإسلام دين الإنسانية والحضارة والتقدم.. لا يفارقه الطابع الإنساني في حال حرب أو سلام، ومسلكه في هذا واضح. أما مسالك الحضارة الحديثة في الشرق وفي الغرب، فلا تقوم على مبدأ، أو فضيلة أو شرف. وإنما تقوم فقط على ترقية المادة وعبادة صورها. وهذا ما أدى إلى الاضطراب، وإشاعة القلاقل، والمتاجرة بالشعوب. وحضارة الإسلام تقوم أساساً على إطلاق المعاني الإنسانية من عقالها، وإتاحة الفرصة لتبرز القيم مجردة خالصة من شوائب الحيوانية الرخيصة، والمادية الجشعة والوحشية الأثيمة.

حضارة الإسلام ترعى العهود، وتصون الذمم، وتستشعر الرفق، وتطلق الرحمة وتضبط العلائق.

إن إنسانية الإسلام وقيمه الحضارية بـادية بـارزة في كل شعـائره ومظاهره، وسلوكه وأخلاقه..

المسلمون والأسلوب العلمي في المعارك الإسلامية

جاء الدين الإسلامي الحنيف برسالة ضخمة لتحرير الإنسان من عبودية الإنسان للإنسان، وعبودية الهوى، وعبودية الطاغوت... ولتعبيد الإنسان لله تعالى وحده، دون أن يشركه في العبادة شريك: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾[1].

وقد قام الرسول محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام بحملة توعية إسلامية واسعة النطاق. تدعو إلى عبادة الله، ونبذ الأصنام البشرية وغير البشرية.

ولم يحاول المسلمون في يوم ما أن يضايقوا الناس في عقائدهم أو يلجؤوهم إلى عقيدة الإسلام رغماً عنهم. لأن النفوذ إلى ضمائر الناس ودخائل نفوسهم بالقوة أمر مستصعب ولأنه لا يمكن التأثير على أفكار الناس وعقائدهم عن غير طريق الاقتناع الذاتي والاطمئنان..

والإسلام برسالته الضخمة يقر هذه الحقائق النفسية، ويؤكدها بشكل لم يبق مجالاً للتساؤل والجدل. قال تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾[2].

---

(١) سورة الفاتحة. الآية رقم (٥).

(٢) سورة البقرة. الآية رقم (٢٥٦).

ولم تتخذ الرسالة الإسلامية وسيلة لدعوة الناس إلى هذه العقيدة الجديدة والفكرة الجديدة على البيئة الجاهلية يومذاك غير التوعية والإقناع أداة الدعوة المفضلة في الإسلام، لتبديد ظلام الجاهلية التي كانت تحجب الناس عن إدراك قيمهم الإنسانية وفهم واقعهم البشري وصلتهم بالله تبارك وتعالى[1].

والصراع بين الأحياء من طبيعة الحياة[2]، وقوى الشر والإلحاد تعمل دون هوادة والمعركة مستمرة بين الخير والشر، والصراع قائم بين قوى الإيمان، وقوى الطغيان والشر جامح، والباطل مسلح.

ومن هنا حرص الإسلام على أن يكون المسلمون على استعداد لمواجهة الباطل وقوى الإلحاد والإضلال والطغيان، والجاهلية، مهما تكن التضحيات في النفس، والأهل والمال.. والمواجهة بين الحق والباطل ضرورة مؤكدة[3].

وقد أشار إلى هذا القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره أن الله لقوي عزيز﴾[4].

فليس بإمكان الدعوة الإسلامية أن تشق طريقها إلى أسماع الناس وقلوبهم، وتخرق الحجب الكثيفة التي حاكتها الجاهلية حولهم لتحجب النور

---

(١) رسالة الإسلام. السنة ٣ العدد ٥، ٦، ص ٥ العراق.

(٢) وقد ثبت بالتجربة واستقراء التاريخ أن الصراع لا بد من وقوعه بين الناس مهما ارتقت أفكارهم أو تقدمت وتطورت معارفهم وحضارتهم والدليل الواضح على ذلك ما يقع بين الأمم من الحروب العالمية. وهذا التسابق المحموم من أسلحة الفتك والدمار والخراب رغم ما وصلوا إليه من العلم والحضارة المادية والتقدم.

(٣) أحمد عبد الرحيم السايح. أضواء على الحضارة الإسلامية ص ١٧٩ ط دار اللواء بالرياض السعودية.

(٤) سورة الحج. الآية رقم ٤٠.

عنهم. . دون أن ـ تضع حداً للتحرشات التي كان يقوم بها أقطاب الجاهلية بين حين وآخر، لصد الدعوة الإسلامية وعرقلة سيرها حتى يتاح لها أن تأخذ طريقها إلى قلوب الناس.

وفي مثل هذه الظروف لا يمكن أن تقف الدعوة الإسلامية مكتوفة الأيدي وهي تحمل للإنسانية أكبر رسالة لتحرير الإنسان على وجه الأرض. . فحتمية المواجهة تقتضي ضرورة الاستعداد. وليس شرطاً أن ينتظر المسلمون حتى يروا إمارات الشر والعدوان. وإنما على المسلمين أن يدركوا طبيعة الحياة من واقع الناس، فيبذلوا قصارى الجهد في إعداد القوة وإلى هذا يوجه القرآن الكريم المؤمنين بقوله: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾[١] فلاستعداد بما في الطوق هو فريضة الجهاد في الإسلام، وإعداد القوة في الإسلام والتي جاء الأمر بها ليس المقصود بها إعداد قوة مماثلة لقوة الأعداء، لأن فريضة الجهاد في الإسلام لا تنظر حتى يتم إعداد قوة مماثلة لقوة العدو، لأن ذلك قد يطول.

لقد أدرك الرسول ﷺ أن أصحابه أصبحوا قوة، من النظام الذي بثه فيهم، والروح المعنوي الذي نماه في نفوسهم، واجتماع الكلمة، وحب الاستشهاد في سبيل الله بحيث يستطيع أن يلقى بهم أقطاب الجاهلية وسادة الجزيرة العربية في أول معركة منظمة. ولو لم يكن يعلم، وكان يخشى لقاء قريش مجتمعة في بدر لذهب إلى طريق الشام يلقى عيرها، ولكان ذلك أهون عليه. لأنه يلقاها في مكان أبعد عن مكة من المكان الذي لقيها فيه. فهو إذن لم يقصد قافلة التجارة لذاتها، ولكنه أحب أن يلقى معها جيش قريش[٢].

---

(١) سورة الأنفال. الآية رقم ٦٠.

(٢) الأستاذ عبد الرحمن عزام «بطل الأبطال» ص ١٣٥ الطبعة الخامسة السعودية.

والرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه. فضلاً عن إيمانهم العميق بالله وتوكلهم عليه، واعتقادهم أن النصر من عنده سبحانه وتعالى. كانوا يأخذون بالأسلوب العلمي في كل ما يخوضون من معارك. ففي غزوة بدر نجد أنه ﷺ استعمل أسلوباً علمياً دقيقاً.

حيث تقدم الرسول ﷺ إلى بدر بكتيبة ليس لها من معدات الجيوش ما لقريش. فقد كانت الخيالة فيها لا تزيد على فارسين في رواية وثلاثة فرسان في رواية أخرى. ولم تكن لها دروع ولا أسلحة غير السيوف. بل لم يكن لها ما يكفي من الإبل لحمل العتاد والرجال. هذا على حين كان لقريش العدد والعدة. فكان عدد فرسانها مائة فارس، وكان مشاتها ثلاثة أضعاف المشاة من أصحاب الرسول ﷺ وكان معها من الإبل ما يكفي لأن يذبحوا لطعامهم عشرة كل يوم. وكان كل ما يعرف من أنواع السلاح إذ ذاك متوفر لها بسبب ثرائها، واستعدادها الدائم للحرب، وخصوصاً هذه المعركة.

ولكن شيئاً آخر عظيماً كان متوفر لأصحاب الرسول ﷺ فاستعاضوا به عما كان ينقصهم من القوة والعدد. أما هذا الشيء العظيم. فهو أمور ثلاثة:

الأول: النظام. فإن اهتمام التربية الإسلامية بتنشئة أتباعها على العبادة الخالصة وتلقين عقيدة التوحيد، وإرجاع الأمر إلى الله مع حسن العمل، والإيمان بالمساواة في عمل الدنيا والآخرة، وإيثار الشهادة في سبيل العقيدة على الحياة والأهل والعشيرة وكذلك انطباع نفوسهم بطاعة الله والرسول وأولى الأمر منهم.. إن هذه التربية قد أحدثت فيهم قوة جديدة لم يكن العرب يعرفونها من قبل. تلك هي قوة النظام التي رجحت بها كتيبة المؤمنين على جيش المشركين.

والثاني: القوة المعنوية التي ملأ بها الإسلام نفوسهم، فإنهم دون مشركي العرب كانوا يؤمنون بالبعث، فهم لذلك لا يرون في الموت فناء مطلقاً. بل يرون أن وراء إدراك ـ فضل الشهادة حياة أبقى وأسعد من هذه الحياة.

والثالث: وحدة القيادة. فقد كان المسلمون ممتازين بها، يتفانون في الإخلاص والطاعة لقائدهم، وذلك من الأمور التي ضاعفت قواهم[1].

وكان ﷺ يرسل العيون ليعرف أخبار العدو. وكان يخرج بنفسه ليعرف الأخبار. وكان لا يتعصب لرأي ولو كان هذا الرأي رأيه. وهذه الصفة من أبرز صفات القائد الناجح، لا هم له إلّا النصر. فلما نزل رسول الله ﷺ قال الحباب بن المنذر: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل. أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟.

قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة». فقال: يا رسول الله: فإن هذا ليس بمنزل. فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي» ونفذ ما أشار به رضي الله عنه[2].

ورغم أن بدراً تعد أول غزوة من غزوات المسلمين. ورغم أنها المرة الأولى التي يقف فيها الرسول الكريم موقف المحارب. فإن الباحث والدارس يستخلص من هذه الغزوة دروساً حربية لها قيمتها العلمية في مجال الحرب. ويستخلص أيضاً مبادىء خطيرة لها شأنها. ورغم اختلاف العصر الذي نعيش فيه، والعصر الذي تمت فيه معركة بدر الكبرى، فإن هذه المبادىء لم تتغير ولم تتبدل، لأنها الأساس السليم لكل حرب في كل عصر. ومن أهم هذه المبادىء:

١ ـ الاستكشاف والاستطلاع:

ونلاحظ أن الرسول عليه الصلاة والسلام اهتم اهتماماً بالغاً بالاستكشاف والاستطلاع وأنه كان يقوم بنفسه تقديراً منه للنتائج الخطيرة التي تترتب على الاستكشاف السليم الصحيح.

---

(١) الأستاذ عبد الرحمن عزام «بطل الأبطال» الطبعة الخامسة السعودية ص ١٣٦.

(٢) ابن هشام (سيرة النبي ﷺ) ج ٢ ص ٤٥٢.

كما أنه ﷺ كان يختار من يثق بهم لأداء هذه المهمة الخطيرة وتنظيم القناصة واختيار الصالحين لهذه العملية، وعدم فرض فرد معين للقيام بهذا العمل الذي يحتاج إلى روح عالية ورغبة أكيدة[1].

٢ ـ سرية التحرك:

وتكتيك الحرب يبدو واضحاً في السرية التامة في التحركات وخاصة في العمليات فاحتلال المسلمين لمواقع المياه تنفيذاً لرأي الحباب بن المنذر تم في منتصف الليل حتى لا يشعر بهم العدو، والرسول كان يأمر جنده بأن يظلوا في أماكنهم لا يتحركون أو يتحدثون أو يأتون بما يثير انتباه أعدائهم. وكانوا بذلك يتركون عدوهم يتقدم ويتقدم، ويظل في تقدمه حتى إذا أصبح في مرمى النبال ألقوها عليه، فتصيب منه العدد الكبير فوق ما تحدثه المفاجأة في نفسه فيرتبك ويضطرب وتكثر إصاباته، ويزيد عدد قتلاه[2].

٣ ـ رفع الروح المعنوية:

والقوة المعنوية للمحاربين هامة جداً والقوة المعنـوية هي العـامل الأساسي الذي دفع بالمسلمين إلى النصر رغم قلة عددهم وكثرة عدوهم.

٤ ـ الشورى:

والشورى مبدأ من المبادىء الإسلامية الهامة، اهتم به الإسلام وحرص عليه وأكده، ودعا إليه، وأوجب على المسلمين العمل به، بحيث أنهم لا يقدمون على أمر ولا يعملون عملاً إلاّ بعد التشاور فيما بينهم. فإن في ذلك ألفة للجماعة وسبباً إلى الصواب، واستخراجا للوجه الصالح الذي تستلزم به الجمـاعة، فتهتـدي إلى الحق وتحقق لنفسهـا العـزة والتقـدم. وصـدق رسول الله ﷺ في قوله: «ما تشاور قوم قط بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما

---

(١) الإدارة العامة للدعوة (الدين والحياة) ع ٩٩ ص ٢٣ وزارة الأوقاف المصرية.

(٢) محمد فرج (العبقرية العسكرية في غزوات الرسول) ص ١٣٥ ص ١٣٧ بتصرف القاهرة.

يحضرهم»[1] والقائد الحكيم هو الذي يستشير جنده وخبراءه ليعرف منهم الخطة السليمة الصحيحة التي تؤدي إلى النصر.

٥ ـ القضاء على اقتصاد العدو:

ولا شك أن القضاء على قوة العدو الاقتصادية قضاء على القوة العسكرية. ولقد أدرك الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك واهتم به إذ يثبت هذا الاهتمام من الغزوات الأولى والسرايا التي بعث بها الرسول قبل معركة بدر فقد كان من الأهداف القضاء على تجارة قريش، وتهديد القوافل.

والرسول عليه الصلاة والسلام لم يستعمل الأسلوب العملي وهو في قلة من أصحابه فقط وإنما استعمله أيضاً في كثرة ومنعة من أصحابه. ولقد ظهر هذا واضحاً حينما أمر الرسول عليه والصلاة والسلام تجهيز الحملة إلى مكة، وقرر أن توضع خطة للاستيلاء عليها على أساس عدم إراقة دماء، ولهذا اعتمدت الخطة على المفاجأة أي مباغتة القوم فلا يجدون لهم دفعاً فيسلمون دون إراقة الدماء. وبلغ حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على إخفاء تحركاته إلى مكة أنه دعا الله عز وجل أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تعرف شيئاً عن تحركه. «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها» كما أمر الرسول بحراسة الطريق إلى مكة، والتحفظ على كل من يستراب فيه. وأن الأسلوب العلمي في غزوة الفتح يقدم للتاريخ العسكري والعسكريين دروساً هامة، نذكر منها ما يأتي:

١ ـ إن الرسول عليه الصلاة والسلام وضع نصب عينيه أغراضاً معينة، وأنه خلال العمليات لم يتحول عن هذه الأغراض.. ومن ذلك أنه كان قد قرر دخول مكة. فلما جاء أبو سفيان يطلب مد مدة الصلح الذي بينه وبين قريش رأى ـ الرسول عليه الصلاة والسلام أن في ذلك المد تعطيل للغرض الرئيسي الذي يهدف إليه، ولهذا رفض الرسول دعوة أبي سفيان بمد مدة

---

(١) البخاري في الأدب المفرد عن الحسن.

العقد أو العهد. ومن ذلك أيضاً أن الرسول عليه الصلاة والسلام قرر عند وضع خطته أن يدخل مكة دون قتال أو إراقة دماء. وأصدر أوامره هذه إلى قادة الفرق التي أعدت لدخول مكة. فلما شاهد عليه الصلاة والسلام خالداً وهو يحارب في الجبهة الجنوبية، غضب ودعاه إلى إيقاف الحرب، حتى إذا علم بما قوبل به خالد من المقاومة قال: «إن الخيرة فيما اختار الله».

ومن ذلك أيضاً: إن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يسعى إلى نشر الإسلام وقيامه على أنقاض الوثنية وعبدة الأصنام، ولهذا فعندما دخل مكة لم ينس الغرض الرئيسي الذي يجاهد من أجله، ولهذا حطم الأصنام في الكعبة، ثم أمر بهدم كل صنم في داخل البيوت «من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك في داره صنماً إلا حطمه» ولم ينس الرسول عليه الصلاة والسلام الأصنام التي كانت تعبد خارج الكعبة فبعث السرايا لهدمها وللدعوة إلى عبادة الله الواحد القهار[1].

٢ ـ المفاجأة أو المباغتة: لوحظ في هذه الغزوة أن الرسـول عليه الصلاة والسلام قرر مباغتة قريش رغبة منه في عدم إراقة الدماء أو إثارة القتال، ولهذا فإنه دعا إلى الإعداد للحملة في سرية تامة. وذلك بأن دعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش، حتى لا تعرف شيئاً عن تحركاته. بأن أصدر أوامره بمراقبة الطرق إلى مكة، والتحفظ على من يشك فيه ضماناً لعدم نقل أو وصول أخبار تجمعاته وتحركاته إلى قريش. ولما عرف الرسول عليه الصلاة والسلام برسالة حاطب أرسل ثلاثة من رجاله حتى عثروا على الرسالة، وأعادوا المرأة إلى المدينة.

ولضمان تحقيق رغبة الرسول في دخول مكة فجأة وبسرعة وبدون قتال حشد الرسول عليه الصلاة والسلام قوات كثيرة ليدخل بها مكة. وكان الرسول يرى في هذا الحشد الكبير تفتيتاً لقوة قريش، وإضعافاً لرغبتها في القتال أن رغبت.

٣ ـ الحرب النفسية: لقد اهتم الرسول عليه الصلاة والسلام اهتماماً

---

(١) الدين والحياة ع ٩٩ ص ٣٨ وزارة الأوقاف المصرية.

بالغاً بها. فقد علم أهمية الروح المسيطرة على المحاربين في الميدان. ولهذا دفع بالعباس رضي الله عنه على بغلته البيضاء ليكون سفيراً له يحمل إلى قريش أنباء الجيش الكبير القادم إليها.

ولما جاء العباس بأبي سفيان طلب منه الرسول أن يأخذه إلى مكان ضيق في الجبل ليرى الجيش، وليعرف قوته، وليلمس بنفسه ما تجنيه قريش على نفسها. لو أنها قررت القتال والمقاومة. وكان للحشد الهائل الذي أعده الرسول ﷺ أثر كبير في نفسية أبي سفيان، حتى أنه اعترف ـ بالنبوة وأعلن إسلامه. ثم أسرع إلى قريش يدعوها إلى التسليم[1].

فالباحث في التاريخ يرى أن الإسلام اهتم بالدعوة إلى الأسلوب العلمي في المعارك. لأن ذلك مما يرفع معنويات الجند، ويزيد من صمودهم. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا أن الله مع الصابرين﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾[3].

وإذا كان الثبات والصبر من أهم عوامل النصر، فإن من ألزم لوازم ذلك حرص أفراد الجيش على تنفيذ ما يوكل إليهم بمنتهى النظام والدقة والتعاون حتى يبدو الجيش كله كأنه بنيان مرصوص قال تعالى: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾[4].

ومن خصائص المؤمن الحذر والتحفظ والحيطة. لأن هذه الخصائص

---

(١) الأستاذ محمد فرج (العبقرية العسكرية في غزوات الرسول) ص ٢١٠ ص ٢٢٤ بتصرف.

(٢) سورة الأنفال. الآيتان ٤٥، ٤٦.

(٣) سورة الأنفال. الآيتان ١٥، ١٦.

(٤) سورة الصف. الآية ٤.

في الواقع اعتراف من الإنسان بسنة الحياة واحترام منه لنظام الأسباب والمسببات الذي خلقه الله. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً﴾[1]، فالحذر المقصود هوالحذر النافع الذي يحمى الإنسان من الأضرار حتى يصل إلى أغراضه المشروعة التي تخدم أمته ودينه ووطنه.. وأنه لأمر طبيعي أن يحذر الله سبحانه وتعالى أهل الإيمان من الأسباب الضارة من ضعف أو غفلة، أو غرور أو غير ذلك. ومن أخطر أسباب الهزيمة التي يحذر القرآن المسلمين منها أمران:

الأمر الأول: أن تصاب الأمم والجماعات الإنسانية بخلل في تقييم الأمور ووزنها، حيث تقدم المصالح الشخصية والرغبات الدنيوية على حب التضحية بهذه المصالح، من أجل حق الجهاد في سبيل الله، في معركة الصراع بين الحق والباطل. وإلى هذا المعنى يشير القرآن الكريم في صراحة وحسم فيقول تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتك وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾[2].

والأمر الثاني: وهو من أخطر أسباب الضعف أن ينصرف المسلم عن الارتباط بأمته الإسلامية في مقاصدها وأهدافها ووسائلها. وقد يصل الخطر إلى حد الافتتان بأعداء الإسلام من أهل البغي والطغيان. وقد حذر الله سبحانه وتعالى من هذا السلوك الضار تحذيراً شديداً. قال تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلّا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾[3].

وهكذا تبلغ درجة التحذير أن تتداخل تحذيرات متعددة بعضها مع بعض في آية واحدة. مما يدل دلالة صريحة على خطورة هذا الفعل في إلحاق الأذى والمضرة بالأمة الإسلامية.

---

(١) سورة النساء. الآية ٧١.

(٢) سورة التوبة. الآية رقم ٢٤.

(٣) سورة آل عمران. الآية رقم ٢٨.

المسلمون والدفاع عن الإسلام

ثلاثة عشر عاماً يدعو فيها الرسول الأمين إلى الإسـلام، ويتحمل فيها ﷺ وصحابته من ألوان العذاب والتشتت والحرمان الشيء الكثير. .

ويستقر الأمر بالصحابة والرسول في المدينـة، دار الإسلام الأولى ومستقر الأنصار، ومنطلق الرجال، ودعاة الدعوة، وكان الأمل الذي يراود المسلمين أن يتركهم الكفار لدعوتهم ما داموا قد هجروا بلادهم بدينهم. .

ولكن الكفار تمردوا على الحق وأهل الحق. .

ولم يقف الأمر بالكفار عند حد التمرد. وإثارة القلاقل، بل راحوا يجمعون أعواناً لهم على الكفر، وأشيـاعاً لهم في الضـلال، والفساد، والطغيان، وأرادوا القضاء على الإسلام والمسلمين. . وانتظر المسلمون، هل يأمرهم الله بالصبر والتحمل كما كان الحال بمكة. .؟ أو يأذن لهم في الدفاع عن بلاد الإسلام ودين الحق؟.

وكان أن جاء إذن الله للمؤمنين بالقتال والجهاد والبشرى بالنصر. . ومن ذلك الوقت كان الجهاد فريضة إسلامية لأسباب كثيرة أهمها:

أولاً: الاعتداء على المسلمين بالطرد من الديار، ومحاربة الإسلام. .

قال تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله

الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾[1].

فالآية الكريمة، تناولت الأذن بالقتال، وعللت هذا الأذن بما مني به المسلمون من الظلم، وما أكرهوا عليه من الهجرة، والخروج من الديار والأوطان بغير حق..

ثم بينت أن هذا الأذن موافق لما تقضي به سنة التدافع. بين الناس حفظاً للتوازن، ودرءاً للطغيان، وتمكيناً لأرباب العقائد والعبادات، من أداء عباداتهم والبقاء على عقيدة التوحيد والتنزيه..

ثم أرشدت إلى أن الله إنما ينصر بمقتضى سنته من ينصره ويتقيه فلا تتخذ الحرب أداة للتخريب، والإفساد، وإذلال الضعفاء، وإرضاء الشهوات والمطامع، وأنه لا ينصر إلّا من إذا تمكن في الأرض عمرها، وأطاع أمر الله فيها وكان راعي خير ومعروف لا داعي منكر وفساد[2]؟.

ثانياً: الاعتداء على المسلمين في النفس والمال، أو العرض أو فتنتهم في دينهم لإخراجهم منه، أو للتعذيب بسببه..

قال تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فإن الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلّا على الظالمين الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم

---

(١) سورة الحج.

(٢) الإسلام والعلاقات الدولية ـ الشيخ محمود شلتوت ـ ص ٣٠.

فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾[1].

تأمر الآيات المسلمين، أن يقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونهم، وتأمرهم بتتبعهم حيث وجدوا، وتشتيتهم كما شتتوهم من قبل وتنهاهم عن الاعتداء، وتؤكد هذا النهي بكراهة الله للعدوان، وعدم محبته للمعتدين، ثم ترشد إلى أن إخراج الناس من ديارهم وترويعهم في أمنهم، والحيلولة بينهم وبين الاطمئنان على الأنفس، والأموال، والأعراض، فتنة أشد من فتنة القتل وإزهاق الأرواح، قليقاتل العاملون عليها، والمنبرون لها، كما يقاتل السقاتلون . .

ثم تمنع الآيات المسلمين عن القتال في الأماكن المقدسة، والأزمنة المقدسة، حتى يقاتلوا فيها فإن انتهكت حرمتهم فيها، واستبيح قتالهم ساغ لهم أن يردوا العدوان، مثلاً بمثل، وجزاء بجزاء، ثم تخلص الآية بعد ذاك إلى بيان الغاية التي تضع الحرب عندها أوزارها . .

وهي : ألا تكون فتنة في الدين وأن يكون الدين لله ليحصل الناس على حريتهم الدينية من غير اضطهاد فيها، ولا تعذيب عليها . . فإذا ما تحقق هذا الغرض، واطمأنت إليه النفوس وجب وقف القتال[2].

ولعلنا ندرك من هذا. أن مشروعية القتال في الإسلام جاءت لاستتباب الأمن ونشر الإسلام في كل أركان الدنيا . .

أما تخرص المستشرقين، والحقدة على الإسلام من أهل الأديان الأخرى والادعاء بأن المسلمين . . جنحوا إلى القوة حيث لا مبرر لها . . فذلك كله لغو طائش . . وهو جزء من الحملة المدبرة لمحوا الإسلام من الأرض. واستبقاء أهله عبيداً للصليبية والصهيونية وما إليهما . .

---

(١) سورة البقرة ـ الآيات ١٩٠ ـ ١٩٤.

(٢) الإسلام والعلاقات الدولية ـ لشيخ الأزهر محود شلتوت ـ ص ٣٠ و ٣١.

وما من أيام القتال فيهن أوجب على المسلمين من أيام يهدد، فيها الإسلام وآله بالفناء. .

وتتألب عليه شتى القوى، بل يصطلح ضده الخصوم الألداء. محاولين سحقه إلى الأبد. .

قد وقع ذلك في صدر الإسلام قبل الهجرة وبعدها، ووقع في هذه الأيام فسقطت أوطان الإسلام في أيدي لصوص الأرض. . ثم رسمت أخبث السياسات للذهاب به رويداً رويداً. .

فكيف تستغرب الدعوة إلى التسلح، والإهابة بأهل النجدة أن يوطنوا أنفسهم على التضحية في سبيل الله؟.

وكيف تستنكر صناعة الموت في أمة يتوائب حولها الجزارون من كل فج[1]؟.

ثالثاً: نصرة المظلومين:

وما أكثر المظلومين الذين تعرضوا لأحقاد شائنة، ومطامع قاتلة، وأخرجوا من ديارهم بغير حق، وحرموا من بلادهم. . وأوطانهم. .

وما أكثر المظلومين الذين يعيشون تحت سيطرة الصلف والغرور والعنجهية والقسوة القاتلة. .

وما أكثر المظلومين الذين يعيشون تحت ظل ظروف عصيبة. .

وما أكثر المظلومين الذين حرمتهم الماركسية من عبادة الله الخالق القهار.

وما أكثر المظلومين الذين منعتهم الصهيونية من حقوقهم وبلادهم. .

من أجل كل هذا قال تعالى للمسلمين: ﴿ومالكم لا تقاتلون في سبيل

---

(١) فقه السيرة ص ٢٢٣ ـ الشيخ محمد الغزالي.

الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾[1].

فأنت ترى من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى، يحرض عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين بالمقام بها[2].

وقال تعالى: ﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلّا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير﴾[3].

بمعنى: وإن استنصركم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدوّهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم، لأنهم إخوانكم في الدين إلّا أن يستنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق أي مهادنة إلى مدة. فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا إيمانكم مع الذين عاهدتم[4].

وقال تعالى: ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلّا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً﴾[5].

وهكذا تتضافر الدعوة إلى نصرة المظلومين، والأخذ بأيديهم، والوقوف معهم..

ومن هنا كان المسلمون مطالبين بإعداد العدة، واليقظة لتلبية النداء..

---

(١) سورة النساء ـ آية ٧٥.

(٢) تفسير ابن كثير ـ ج ١ ص ٥٢٥ ـ.

(٣) سورة الأنفال ـ آية ٧٢ ـ.

(٤) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٢٩.

(٥) سورة النساء ـ آية ٨٤ ـ.

رابعاً: محاربة المفسدين في الأرض المهددين لأمن الناس وسلامتهم . .

والمفسدون في الأرض، هم شرار الناس، لأنهم يعكرون صفو الحياة ويؤخرون التقدم، ويقضون على عوامل البناء، والأمن، والاطمئنان . .

والمجتمعات تعاني من المفسدين الكثير . . مما يشكل خطورة على الإنسانية ونموها . .

والله سبحانه وتعالى . لا يرضى من المسلمين أن يقفوا مكتوفي الأيدي والمخربون في الأرض يعثون بالفساد.

ولهذا بيّن الله الطريق للمؤمنين فقال تعالى: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾[1].

والمحاربة . . هي المضادة والمخالفة . . وهي صادقة على الكفر، وعلى قطع الطريق.

وكذا الإفساد في الأرض، يطلق على أنواع من الشر، حتى قال كثير من السلف منهم سعيد بن المسيب: «إن قبض الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض، والمراد من قبض الدراهم والدنانير سلبها من الناس بالقوة»[2].

وتمشياً مع توجيه الوحي، وسياسة الواقع، وحفاظاً على حق الله وحق الحياة . . درب النبي ﷺ رجاله على فنون الحرب، واشترك معهم في المناورات والمعارك.

---

(١) سورة المائدة ـ آية ٣٣ ـ.

(٢) تفسير ابن كثير ـ ج ٢ ص ٤٨٢٤٧.

وعد السعي في هذه الميادين خطوات إلى أجل القرب، وأقدس العبادات لعله بذلك يفل شوكة الكفر ويكسر عن المسلمين أذاه . .

﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلّا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً﴾ . .

عن عتبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألّا إن القوة الرمي ألّا إن القوة الرمي . ألّا إن القوة الرمي»[1].

والحديث ينوه بما لأصابة الهدف من أثر حاسم في كسب المعارك والرمي أعم من أن يكون بالسهام، أو بالرصاص، أو بالقنابل . . وعن فقيم اللخمي، قال: قلت لعقبة بن عامر: تختلف بين هذين الغرضين ـ تتردد بينهما ـ وأنت شيخ كبير يشق عليك؟ .

قال عقبة لولا كلام سمعته من رسول الله ﷺ، لم أعانه . . قال: وما ذاك؟ قال سمعته يقول: «من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا»[2].

فانظر كيف يبقى الشيوخ المسنون على ذريتهم في إصابة الهدف، ومهارة اليد، ونشاط الحركة . .

إن الإسلام يفترض المقدرة على القتال فيوجبها على الشباب والشيوخ جميعاً . .

ألّا ترى كيف حض النبي ﷺ على تعلم القتال في البحر. فقال: «غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر. ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية كلها والمائد فيه ـ الذي يصيبه الدوار والقيء ـ كالمتشحط في دمه»[3].

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم ج ٦ ص ٥٢ والترغيب ج ٢ ص ٣٩٩ ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد والحاكم.

(٢) أخرجه مسلم في الجزء السادس ص ٥٢.

(٣) أخرجه الحاكم الجزء الثاني ص ١٤٣ وهو صحيح على شرط البخاري.

والدول تحتاج إلى الكتائب في البر والأساطيل في البحر والجو وكل سلاح عون لأخيه في إدراك النصر.

وأسبق الجند إلى رضوان الله أعظمهم نيلاً من العدو، وأرعاهم لذمام أمته وشرف عقيدته. . سواء مشى، أم رمى، أو أبحر، أم طار. .[1].

والأمة الإسلامية أحوج ما تكون إلى إعداد جيوش جرارة، ولقد حبا الله سبحانه وتعالى أمتنا الإسلامية من الطاقات البشرية ما يمكنها من الوصول إلى سعادة المسلمين وهي أشد ما تكون إلى أساطيل بحرية تمخر عباب البحر وإلى طيارين وطائرات تملأ سماء الدنيا. .

خامساً: إلقاء الهيبة في نفوس الناس، واحترام أمن البلاد فالأمة الإسلامية في أشد الحاجة إلى الجهاد المستمر، والإعداد المتواصل ليتهيب العدو بأسها، ويخشى سلطانها.

وبجانب هذا وذاك لِتأمَنَ الأمة سطوة المنافقين ودعاة السوء، وما أكثر دعاة السوء في البلاد الإسلامية، إنهم يتحينون فرص ضعف الأمة ليتمردوا على نظم البلاد ويثيروا فيها الفوضى والقلاقل ولهذا قال تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾.

وما أكثر محاولات اليسار والماركسية والشيوعية في البلاد الإسلامية. .

وكم تعطلت الدراسة في الجامعات بسبب البلاء بفتنة اليسار واليمين، والتي روج لها دعاة المادية والتبشير والصهيونية ليظل الشباب المسلم بعيداً عن واقع الحياة وبعيداً عن معالجة قضايا الأمة.

ولهذا نجد أنفسنا أحوج ما نكون إلى جهاد إسلامي واسع يمتد ليشمل العالم الإسلامي كله والمسلمون في عهد ﷺ يرسلون السرايا المسلحة تجوس خلال الصحراء المجاورة وتخترق طرق القوافل المارة بين مكة والشام وتستطلع أحوال القبائل الضاربة هنا وهناك.

---

(١) فقه السيرة ـ ص ٢٢٤.

والحكمة في توجيه هذه السرايا يمكن تلخيصها في أمرين:

أولهما: إشعار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها، بأن المسلمين أقوياء، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم، ذلك الضعف الذي مكن قريشاً في مكة من مصادرة عقائدهم وحرياتهم، واغتصاب دورهم وأموالهم..

ومن حق المسلمين أن يعنوا بهذه المظاهرات العسكرية على ضآلة شأنها.. فإن المتربصين بالإسلام في المدينة كثيرون ولن يصدهم عن النيل منه إلّا الخوف وحده وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿ترهبون به عدوا الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾.

والصنف الأخير هم المنافقون الذين يبطنون البغضاء للإسلام وأهله.. ولا يمنعهم من إعلان السخط عليه إلّا الجبن وسوء المغبة..

أما الأولون فهم المشركون، ولصوص الصحراء، وأشباههم ممن لا يبالون ـ لولا هذه السرايا ـ الهجوم على المدينة واستباحة حماها. وقد كان من الجائز أن يتجرأ البدو على تهديد المدينة حيناً بعد حين غير أن هذه السرايا الزاحفة قتلت نيات الطمع، وحفظت هيبة المسلمين..

والأمر الآخر في حكمة بعث السرايا.. إنذار قريش عقبى طيشها.. فقد حاربت الإسلام، ولا تزال تحاربه، ونكلت بالمسلمين في مكة ثم ظلت ماضية في غيها.. لا تسمح لأحد من أهل مكة أن يدخل في دين الله.. ولا تسمح لهذا الدين أن يجد قراراً في بقعة أخرى من الأرض.. فأحب الرسول ﷺ أن يشعر حكام مكة بأن هذه الخطة الجائرة ستلحق بهم الأضرار الفادحة وأنه قد مضى إلى غير عودة، ذلك العصر الذي كانوا يعتدون فيه على المؤمنين، وهم بمأمن من القصاص[1].

والمسلمون في هذا العصر الذي تكالبت فيه القوة المسعورة لمحاربة

(١) فقه السيرة ـ ص ٢٢٨، ٢٢٩.

الإسلام في أشد الحاجة إلى قوة ترد كيد الأعداء قبل أن يستفحل الخطر ويشتد الأمر على المسلمين أن الأمة ولا شك تعاني من التبشير والإلحاد، وكل يوم يزداد التكالب المسعور. فيجب ـ ونحن نملك من الإمكانيات ما يحقق لنا كل شيء ـ أن نبدأ في إعداد شباب إسلامي للجهاد في سبيل الله.

والجهاد هو الطريق المشرق أمام أبناء أمة، قدر لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس..

قال تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً أن الله عنده أجر عظيم﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ لأبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «يا أبا سعيد.. من رضي بالله تعالى رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً وجبت له الجنة» فعجب لها أبو سعيد. فقال: أعدها على رسول الله.. ففعل.. ثم قال: «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة ما بين الدرجتين، كما بين السماء والأرض.. الجهاد في سبيل الله.. الجهاد في سبيل الله»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «تضمن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي.. فهو ضامن على أن أدخله أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً مانال من أجر أو غنيمة. والذي نفس محمد بيده ما كلم يكلم في سبيل الله. إلّا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم لونه لون دم وريحه مسك»[3].

---

(١) سورة التوبة آية ١٨ ـ ٢٢.

(٢) التاج للأصول ج ٤ ص ٣٣٣ رواه مسلم والنسائي.

(٣) التاج الجامع للأصول ج ٤ ص ٣٣٣ رواه الشيخان.

فالله سبحانه وتعالى.. شرع الجهاد عن العقيدة، وصيانة للوطن، والأهل والمال..

ولهذا طالب الشرع الأمة الإسلامية بالإعداد بكل قوة تدخل في حدود الطاقة سواء كانت بشرية أم مادية قوة يدخل فيها إعداد الطاقات البشرية في الأمة الإسلامية. وقوة يدخل فيها تسخير الأموال في التماس أسباب القوة.

والأمة الإسلامية مطالبة بأن تكون في جهاد مستمر وحياة أفراد الأمّة الإسلامية كلها جهاد وجِدِ عمل.

وأسمى درجات الجهاد، وأعلاها منزلة ومقاماً عند الله تبارك وتعالى إنما هي محاربة الكفار وذب الأعداء عن الديار، والأوطان، وصد هجمات أعداء الله والتفاني في خدمة الدين والتضحية لإعلاء كلمة الله..

ومن الجهاد محاربة المارقين وبخاصة الملاحدة أعداء الحق والدين.. والاستشهاد في سبيل الله، فضيلة الفضائل، وأس من أسس حب العقيدة وركيزة من ركائز القوة.

قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما أتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم إلّا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1].

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجب ربنا[2] من رجل غزا في سبيل الله، فانهزم أصحابه. فعلم ما عليه فرجع حتى أهريق دمه. فيقول الله عز وجل لملائكته: انظروا إلى عبدي. رجع رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي»[3] وعن أبي قتادة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قام

---

(١) سورة آل عمران ـ آية ١٦٩ و ١٧٠.

(٢) المراد بالعجب في حقه تعالى كون الفعل المتعجب منه في منزلة عظيمة.

(٣) تفسير فيض القدير ـ للإمام الشوكاني ـ ج ٤ ص ٣٠٣ والحديث رواه أبو داود والحاكم.

فيهم خطيباً. . فذكر أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال. . فقام رجل. فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. . إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر. .

ثم قال رسول الله ﷺ: كيف قلت؟ قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟.

فقال رسول الله ﷺ: «نعم ـ إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر».

عن عقبة بن عبد السلمي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «القتلى ثلاثة: رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقي العدو قاتلهم حتى يقتل فذلك الشهيد الممتحن، في جنة الله تحت عرشه، لا يفضله النبيون إلّا بفضل درجة النبوة. .

ورجل فرق (خائف) على نفسه من الذنوب والخطايا. جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقي العدو. . قاتل حتى يقتل ممصمصة[1] محت ذنوبه وخطاياه أن السيف محاء للخطايا. . وأدخل من أي أبواب الجنة شاء. .

ورجل منافق بنفسه وماله حتى إذا لقي العدو، قاتل في سبيل الله عز وجل حتى يقتل فذلك في النار، إن السيف لا يمحو النفاق»[2].

وبحب المسلمين الاستشهاد هزمت جيوش الروم، والفرس، والمغول، والتتار أمام الجيوش الإسلامية.

وفرنسا بكل قوتها وإعدادها. . هزمت أمام شعب الجزائر المسلم الذي لا تقهر إرادته. ولا تلين قناته. .

---

(١) الممصمصة: الممحصة المكفرة.

(٢) الترغيب ج ٢ ص ٤٣٩. رواه أحمد والبيهقي وابن حيان والطبراني.

وبريطانيا العظمى التي كانت الشمس لا تغرب عن مستعمراتها هزمت أمام إيمان الشعوب الإسلامية. المعتزة بعقيدتها.

وإسرائيل التي كانت تزعم أن جيشها لا يهزم ولا يقهر، هزمت هزيمة منكرة في العاشر من رمضان ٩٣ هـ.

وعندما توجه المسلمين لمقابلة الروم بقيادة هرقل فوجيء المسلمون أن هرقل لديه من القوة العددية، والعتاد، ما يفوق جيش المسلمين أضعافاً مضاعفة. فقرروا أن يعرضوا ذلك على رسول الله ﷺ فأما أن ينجدهم بقوة، أو يطلب منهم العودة. .

لكن هذا الرأي لم يوافق عليه أحد قادة ذلك الجيش وهو الصحابى الجليل: عبدالله بن رواحة. . فأوضح لجيش المسلمين قوة العدو، وأخبرهم بالواقع، وأن المهمة التي من أجلها قدموا. . لا بد من أدائها قائلًا: «وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة. ما نقاتلهم إلّا بهذا الدين الذي أمرنا الله به فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين أما ظهور وأما شهـادة». فانتصـر المسلمون رغم تفوق الروم في العدد والعتاد. .

قال الله تعالى: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيهم نعيم مقيم خالدين فيها أبدا أن الله عنده أجر عظيم﴾[1].

إلى غير ذلك من الآيات التي تملأ النفس بهذا الفيض المعنوي الهائل. . وتذكي في المسلم جذوة الجب والجهاد في سبيل الله. وتفتح قلبه إلى آفاق فسيحة في حياة غير هذه الحياة. . هي خير وأبقى. .

ويعلم الله. . أن آيات القرآن الكريم عند المؤمن لها قدرة اكتساح ما

---

(١) سورة التوبة.

يوحي به الوهم من أسباب مثبطة، وعوائق مانعة.. وبجانب هذا تملأ قلب المؤمن ثقة بالنفس، وتزيح عنه ما يخشاه من العدو، وتصور له المعركة وكأنها مضمونة النتائج.. عندئذ تتخذ كل خلية من خلايا الأمة الإسلامية بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدي دورها..

والأمة الإسلامية في حاجة إلى استيقاظ كل طاقاتها، واحتشاد كل قواها وتجميع كل طاقاتها.. كي يتم النمو ويكمل البناء..

وقد يقول قارىء.. لماذا لا ينتصر المسلمون على الملاحدة وأعداء الحق، والبلاد والدين، من أول الأمر؟.

نعم أن الله سبحانه وتعالى قادر على ذلك.. ولكن حكمة الله كما يذكر العلماء قضت أن ـ لا تعطل طاقات الأمة الإسلامية عن الظهور. كما أن النصر الذي لا يكلف عناء والذي يأتي هيناً على القاعدين المستريحين، سهل فقدانه وضياعه..

أولاً : لأنه رخيص لم تبذل فيه طاقات وتضحيات.

ثانياً: لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به.

ثالثاً: يؤدي إلى الاستهتار بالقيم والأدوات الإسلامية.

رابعاً: التربية الوجدانية والدربة العملية.. تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة والكر والفر، والقوة والضعف، والتقدم والتقهقر..

والمؤمنون الذين أعدوا أنفسهم، وعملوا حسب مقتضيات الإيمان، هؤلاء وعدهم الله بالتمكين والتثبيت في الأرض..

قال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هن الفاسقون﴾[1].

---

(١) سورة النور ـ آية ٥٥ ـ.

ذلك وعد الله سبحانه للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الأمة الإسلامية ووعد الله حق، ووعد الله واقع.. وإننا نستطيع أن نقول.. أن جيمع أفراد الأمة الإسلامية القادرون على الجهاد، مطالبون بأن يكونوا جنوداً في الجيش الإسلامي.

دور الشيوخ: هؤلاء شيوخ المسلمين لم يتقاعسوا عن الاشتراك في المعارك طلباً للراحة، ولكنهم بذلوا أرواحهم في سبيل الله، وانطلقوا مسرعين لنداء الجهاد..

روي أن رسول الله ﷺ، خلف اليمان أبا حذيفة، وثابت بن وقش في الأطام مع النساء والصبيان، لأنهما كانا شيخين كبيرين..

فقال أحدهما لصاحبه: لا أبالك، ما ننتظر فو الله إن بقي لواحد منا في عمره إلّا ظمأ حمار[1].. أفلا نأخذ أسيافنا، ثم نلحق برسول الله ﷺ ولعل الله يرزقنا الشهادة..

فأخذا سيفهما، ثم خرجا حتى دخلا إلى الناس من جهة المشركين، ولم يعلم المسلمون بهما..

فأما ثابت فقتله المشركون..
وأما اليمان فاختلفت عليه أسياف المسلمين فقتلوه ولم يعرفوه.

وهناك قوم عذرهم الله، ورفع عنهم الحرج، وأسقط عنهم فريضة الجهاد، وتركهم رسول الله في بيوتهم.. فلم ينكر عليهم، ولم يستنفرهم..

ومع ذلك تأبى نفوسهم المؤمنة بالله، المعتزة بعقيدتها، أن تخلد إلى الراحة.. فيقول أحدهما للآخر: أفلا تأخذ أسيافنا وتلحق برسول الله ﷺ لعل الله يرزقنا الشهادة؟.

---

(١) ظمأ حمار: شيء يسير من الوقت.

ثم لا يقفان عند حد الكلام، بل يحمل كل منهما سيفه، ويمضي إلى ميدان القتال غير هياب..

دور الشباب: والشباب في الإسلام.. هم الرواد الذين يتقدمون الجيوش، وعلى أكتافهم يقوم العمل الجاد والمثمر في الحرب والسلم.. فلا غرو أن يكون هذا الشباب هو محط أمال الأمة.. وكان من الطبيعي أن يكون الشباب هم الأغلبية الساحقة في الجيش الإسلامي..

فعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، ومصعب بن عمير وأسامة ابن زيد.. وغيرهم من الشباب كانوا يحملون العبء الأعظم في الجيش..

وروي أن رسول الله ﷺ، رد أناساً يوم أحد لصغر سنهم، منهم عبدالله ابن عمر، وأسامة بن زيد، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم. وغيرهم.. ولما وجد رسول الله عليه الصلاة والسلام أن هؤلاء السباب يتنافسون ويتسابقون لا على المناصب، ولا على الدرجات ولكن على القتال في سبيل الله.. أجاز خروجهم إلى ميدان القتال..

دور النساء: ودور النساء في الإسلام، لا يقل شأناً عن دور الرجال أو الشباب.. وهذه الخنساء حين خرج أبناؤها الأربعة إلى القادسية، توجهت إليهم بالوصية التي قالت فيها:

«يا بني، أنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إلَه إلّا هو.. أنكم بنو رجل واحد، كما أنكم بنو أمرأة واحدة، ما هجنت حسبكم، وما غيرت نسبكم.. واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية أصبروا وصابروا ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون.

فإن رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجللت ناراً على أوراقها، فيمموا وطيسها وجالدوا رسيسها، تظفروا بالغنم والكرامة، في دار الخلد والمقامة..

فلما كشرت الحرب عن نابها، تدافعوا إليها، وتواقعوا عليها، وكانوا

عند ظن أمهم بهم، حتى قتلوا واحداً في أثر واحد. .

ولما وافتها النعاة بخبرهم. لم تزد أن قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من الله أن يجمعنى بهم في مستقر رحمته[1].

وهذه نسيبة بنت كعب المازنية «أم عمارة» تخرج في جيش المسلمين يوم أحد تسقى الظمأى، وتأسوا الجرحى. . وكانت لا ترى الخطر يدنوا من رسول الله ﷺ، حتى تكون سداده، وملء لهوته. حتى قال ﷺ: «ما التفت يميناً ولا شمالاً إلّا وأنا أراها تقاتل دوني»[2].

وهذا ابنها عبد الله بن زيد يقول: جرحت يوم أحد جرحاً في عضدي اليسرى ضربني رجل كأنه الرقل ولم يعرج علي، ومضى عني، وجعل الدم لا يرقا. .

فقال رسول الله ﷺ: «أعصب جرحك». فتقبل أمي ومعها عصائب بين جبينها، قد أعدتها للجراح، فربطت جرحي. والنبي واقف ينظر إليّ. .

ثم قالت: انهض بني فضارب القوم. . فجعل النبي ﷺ يقول: «ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة». قالت أم عمارة: وأقبل الرجل الذي ضرب ابني. .

فقال رسول الله ﷺ: «هذا ضارب ابنك» قالت: فاعترضت له وضربت ساقه، فبرك. ورأيت رسول الله ﷺ، يبتسم حتى رأيت نواجذه. وقال: «استقدت يا أم عمارة». ثم أقبلنا نعله بالسلاح (نكرر ضربه) حتى أتينا على نفسه. .

فقال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي ظفرك وقر عينك من عدوك وأراك ثأرك بعينك»[3].

---

(١) الاصابة ج ٨ ص ٦٧.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد. الجزء الثاني ص ٤١٥.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد. الجزء الثامن ص ٤١٤.

وأصيبت نسيبة «أم عمارة» في هذا اليوم بثلاثة عشر جرحاً.. واحد منها غار في عاتقها، فنزف الدم منه، وهي رغم ذلك كالصاعقة الساحقة، تضرب في نحور العدو ترتمي بين صفوفهم غير آبهة ولا دارية بالدم النازف من جسمها..

فقال رسول الله ﷺ لابنها عمارة: «أمك. أمك. أعصب جرحها. بارك الله فيكم من أهل بيت رحمكم الله أهل بيت».

قالت أم عمارة: أدع الله أن نرافقك في الجنة..
قال: «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة».
فقالت: «ما أبالي ما أصابني في الدنيا[1].

وقد حضرت أم خلاد غزوة أحد مع زوجها، وولدها وأخيها فاستشهد الزوج، والولد، والأخ.. وحملتهم الصحابية على بعيرها، ولقيتها عائشة أم المؤمنين في طريق المدينة.. فقالت لها: عندك الخبر، فما وراءك؟ فقالت أم خلاد: أما رسول الله ﷺ فصالح. وكل مصيبة بعده جلل، واتخذ الله من المؤمنين شهداء[2].

فالمرأة المسلمة لم تترك دورها أمام القوة الباغية، وقد رأيت أيها القارىء الكريم كيف دفعت ـ المرأة المسلمة بأفلاذ كبدها في المعارك الطاحنة، وحضتهم على القتال والحرص على الشهادة.. ولما نعي الناعي إليها أولادها.. لم تجزع. ولم تهن. ولم تصرخ. ولم تولول.. ولكن تحمد الله وتتشرف بهذا المجد.

ولم تقف المرأة في سبيل الحق. عند حد الدفع والحض. بل تخوض غمار الحروب بنفسها، تداوي الجرحى، وتسقي الظمأى، وتقاتل العدو، وتأخذ الثأر..

---

(١) الطبقات الكبرى. الجزء الثاني ص ٤١٥. وإمتاع الإسماع ص ١٤٩.
(٢) إمتاع الإسماع ص ١٤٧.

وتصاب بالجروح. وتنزف منها الدماء.. ومع ذلك لم تتوان عن أداء واجب الدفاع والقتال..

وهكذا تلبي الأمة الإسلامية نداء الجهاد.. بكل ما تملك من طاقات وإمكانيات..

قال تعالى: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان أن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾[1].

فالمؤمنون لهم بالله ثقة واعتماد.. والثقة والاعتماد تتطلبان الاستعداد، والإعداد، والبذل..

وقال تعالى: ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلاّ من اغترف غرفة بيده، فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا إليهم بجالوت وجنوده. قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾[2].

فعندما سار داود عليه السلام في جيش طالوت، لقتال جالوت كان معه أكثر من سبعين ألف رجل..

وبـدهي أن تكون الغلبة لجيش عرموم كهذا الجيش.. ولكن داود ينظر إلى الجيش بمنظار آخر.. هو منظار «الكيف» لا «الكم» فلم تكن العدة لتقنع داود خصوصاً أنه ذاهب إلى قتال العمالقة..

فما كان من القائد إلاّ أن عمد إلى اختبار قوة الإيمان في نفوس الجنود.. فسار بهم في طريق لا ماء فيه، حتى أجهدهم العطش..

---

(١) سورة النساء آية ٧٦.

(٢) سورة البقرة آية ١٩٣.

وفجأة وقف القائد يقول: «إن الله مبتليكم بنهر» ولم يتنبه الجند لمعنى الابتلاء وفرحوا من الاقتراب من النهر.

ولكن الابتلاء: «فمن شرب منه فليس مني، ومن لم يطعمه فإنه مني إلّا من اغترف غرفة بيده». .

ولا شك أن الابتلاء عظيم. . ويصبح أمام الأمر الواقع فأما أن يكونوا مؤمنين حقاً فيتغلبون بقوة الإيمان على هذا الاختبار. .

وأما أن يكونوا غير ذلك، فيرجعون من حيث أتوا، ولا يخدعون أنفسهم. . فمن لم يصبر على وطأة العطش وهو خارج ميدان القتال. . فلن يستطيع الصبر وهو في داخل القتال. .

لأن الحرب تريد الرجال الذين يكونون جبالاً في الجبال، وبحاراً في البحار. .

وما أن يقترب هذا الجيش اللجب من النهر، حتى يتهافت الكثير من الجنود، ويشربون وتمتلىء بطونهم غير مبالين بوصية القائد.

وسار القائد بجند أطاعوا أمر القيادة ويلتقي بهم في معركة ضاربة مع العمالقة. . ويشاء الله أن تنتصر القلة التي امتلاءت بالإيمان والطاعة والحزم والعزم. .

والله سبحانه وتعالى، يبارك جهاد المؤمنين الصادقين، ويعطيهم النصر والعزة. . أما الكافرون فلهم التعاسة والخزى. .

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم أفلم يسيرو في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا، وأن الكافرين لا مولى لهم﴾[1].

(١) سورة محمد الآيات من ٧ ـ ١١.

وللحق حراس يدافعون عنه، ويحمون أرضه.. ولولا ذلك لقضى أهل الباطل على الحق وأهله، وظهر الفساد في البر والبحر..

وقال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره أن الله لقوي عزيز﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلّا على الظالمين﴾[4].

وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لقد رأيتني يوم بدر، ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو. فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه[5]. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: والله كنا إذا حمي الوطيس نتقي برسول الله ﷺ وأن الشجاع الذي يحاذي به..

ولما التقى المسلمون والكفار يوم حنين، وولى المسلمون. طفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار.. قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ، أكفها إرادة ألا تسرع؟[6].

---

(١) سورة البقرة آية ٥١.
(٢) سورة الحج آية ٤٠.
(٣) سورة البقرة آية ١٩٠.
(٤) سورة البقرة آية ١٩٣.
(٥) الإحياء ج ٢ ص ٣٨.
(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد. الجزء الرابع ص ١٨.

وكان النبي ﷺ يركض بغلته إلى العدو وينوه باسمه. فيقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب». وهكذا يضرب رسول الله ﷺ المثل الأعلى في الشجاعة والتضحية في سبيل الحق.

والمسلمون مطالبون بالشجاعة والثبات، ومراقبة الله وإطاعة الأوامر، والصبر..

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا أن الله مع الصابرين﴾[1].

وهذا تعليم من الله تعالى لعباده في اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء..

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ومن معه من الأجناد، حين توجهوا لحرب الفرس. أما بعد: فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب..

وآمرك ومن معك: أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنـأبهم قوة! لأن عـددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية: كان لهم الفضل في القوة، وإلّا ننصر بفضلنا لن نغلبهم بقوتنا.

فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله.. يعلمون ما تفعلون.. فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله، وأنتم في سبيله.. ولا تقولوا عدونا شر منا، فلن يسلط علينا، فرب قوم سلط الله عليهم شراً منهم كما سلط على

---

(١) سورة الأنفال الأيتان ٤٥، ٤٦.

بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله. كفار المجوس: «فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً» واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم. اسأل الله ذلك لنا ولكم»[١].

ومن دلائل الإيمان الصادق.. أن تبذل الأمة جهدها في بذل المال لمساعدة المجاهدين والمرابطين في أداء رسالتهم قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾[٢].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[٣].

والجهاد في سبيل الله، والإخلاص في ميدان القتال، وطاعة الجنود للقائد، وحسن علاقة القائد بجنده، وعناية الأمة بالجيش، والمحافظة على أسرار الجيش والإعداد العسكري.. كل ذلك سبيل إلى النصر..

قال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الإشهاد﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾[٥].

---

(١) المختار من العقد الفريد لابن عبد ربه ص ٢٣، ٢٤.
(٢) سورة الحجرات آية ١٥.
(٣) سبل السلام ج ٤ ص ٥٤. روا أحمد وغيره.
(٤) سورة غافر آية ٥١.
(٥) سورة النمل آية ٥٥.

وضع رسول الله ﷺ ـ بعد أن استقر به المقام في المدينة ـ أسس بناء المجتمع الإسلامي الجديد، فبادر صلوات الله وسلامه عليه إلى بناء المسجد، لتظهر فيه شعائر الإسلام، التي طالما حوربت، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المسلم برب السموات والأرض.

لهذا كان المسجد في المجتمع الإسلامي، مصدر التوجيه الروحي والمادي والمعنوي. وفي الوقت الذي أسس فيه رسول الله ﷺ، قاعدة الانطلاق للأمة الإسلامية أقام بنيان هذه القاعدة من الأخاء الإسلامي الكامل، الذي تذوب في بوتقته عصبيات الجاهلية، والقبلية، والقومية، والعنصرية، فلا حميةإلاّ للإسلام.. ولا يفوت المشرع الأمين أن المجتمع الإسلامي في دولة الإسلام، قد لا يخلو ممن لا يدينون بدين الإسلام..

ولهذا لم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة.. وإنما قبل المعاهدات السلمية التي تنص على احترام العقائد وحرية الدين، والعمل على بناء المجتمع الإنساني السليم.

وكان لا بد أن يكون المسلمون على مستوى المسؤولية في إعداد ما يجعلهم أهلاً للعزة والكرامة ورسالة الإسلام..

وكان المسلمون أثناء هجرتهم، قد خسروا ديارهم وأموالهم وكل ثرواتهم وما يملكون. والمنطق يقتضي أن يعرف هؤلاء حقوقهم فيستردوها

من الطغاة الذين أعمتهم الجاهلية الجهلاء. . والضربة التي تنزل بأهل مكة موجعة إذا ما قدر للمسلمين أن يستولوا على عير لقريش فيها ألف بعير محملة بالأموال عائدة من الشام إلى مكة. .

وخرجت جماعات مع رسول الله ﷺ. . يحسبون أن مضيهم في هذا لن يعدو ما ألفوا من السرايا. . ولكن قائد القافلة أبو سفيان ينجو من الخطر المحدق.

وكان قد أرسل إلى أهل مكة يدعوهم لحماية أموالهم. . واستطاع ضمضم بن عمرو الغفاري. . أن يثير القوم في مكة ويوقد في قلوبهم نيران القتال والحرب. فخرج الناس وهم يغلون. وكانوا تسعمائة وخمسين مقاتلاً، معهم مائتا فرس يقودونها ورأى أبو سفيان بن حرب بعد نجاة القافلة. . أن يرد القوم إلى الديار. لكن أبو جهل الطاغية. . يقسم (ألا ترجع حتى نرد بدراً ونقيم فيها ثلاثاً. .).

ولا شك أن في هذا تحدياً كبيراً للأمة الفتية الناشئة، وفيه أيضاً قضاء على نموها واتساعها. . ولهذا واجه المسلمون هذا التحدي الخطير، وهم قلة في العدد. . إذ لا يصل عددهم الثلاثمائة وخمسة عشر. . وليس معهم العتاد الكافي. .

وليس للمؤمنين سلاح إلّا سلاح الإيمان الذي ينير القلوب ويبصرها بما هو مطلوب فاندفع المسلمون يخططون ويرسمون ويتدبرون. . ولم يرموا بأنفسهم دون تخطيط أو ـ استعداد، ولم ينغمسوا في الملذات والطرب، وهم في حالة حرب، ولم يجلسوا وينتظروا مفاجأة العدو لهم، لم يستعينوا بالشرق أو الغرب، مع أنهم عرفوا أن عدد عدوهم بين التسعمائة إلى الألف. .

وقد عرفوا ذلك من سؤال لغلامين. . كم ينحرون كل يوم قال الغلامان: يوماً تسعا ويوماً عشرا. .

وأقبل الرسول الأمين قائد قافلة الإيمان، والقلة المؤمنة. أقبل يقول

لجنود الحق: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها[1].

وانكشف وجه الجد، واللقاء سوف يكون، وها هم المؤمنون، الذين آمنوا بالله خالق السموات والأرض، واتبعوا رسول الله الذي أرسله الرحمن لينقذ الناس من ظلمات الوثنية والإلحاد.. ها هم مع قائدهم، يتأملون الموقف الصعب والامتحان المر.. ولم تؤثر في نفسياتهم كثرة عدد عدوهم، لأن الإيمان علمهم أن العبرة بالكيف لا بالكم.. واستشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش.. فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال: فأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: فأحسن.. ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله أمض لما أمرك الله. فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: إذهب أنت وربك فقاتلا أنا ههنا قاعدون.. ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[2] لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه..

فقال رسول الله ﷺ: «خيراً ودعا له بخير»..

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس.. وكان يريد الأنصار وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة». قالوا يا رسول الله: إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا..

وكان رسول الله ﷺ يتخوّف أن لا تكون الأنصار، ترى عليها نصرته إلاّ ممن دهمه بالمدينة. من عدوه، وإن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو ليس من بلادهم..

فلما قال رسول الله ذلك.. قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل.. فقال: لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت

(١) صحيح مسلم. ج ٥ ص ١٧٠ وفي سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٥.
(٢) برك الغماد: مدينة بالحبشة. وهو كناية عن المكان البعيد..

به هوالحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله، لما أمرك الله.. فو الذي بعثك بالحق، إن استعرضت بنا هذا البحر، فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقي بنا عدونا غداً، أنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقربه عينك، فسر على بركة الله. فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم»[1].

وتأهب المسلمون لخوض المعركة.. وعسكروا في أدنى ماء بدر.. فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله ﷺ قال: أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي، والحرب والمكيدة.

فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، امض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فنعكسر فيه، ثم نغور ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي ثم أمر بانفاذه فلم يجىء نصف الليل حتى تحولوا كما رأى الحباب، وامتلكوا مواقع الماء»[2]..

وتلك سياسة في الإسلام ترشد إلى يقظة جنود الحق، وقوة ذكائهم.. وحرصهم على امتلاك مواقع القوة..

وكان رسول الله ﷺ يتفقد الرجال، وينظم الصفوف، ويسدي النصائح ويذكر بالله والدار الآخرة.. ثم يعود إلى عريش هيىء له، فيستغرق في الدعاء الخاشع.. ويستغيث بإمداد الرحمٰن..

ووقف أبو بكر إلى جوار الرسول عليه الصلاة والسلام وهـو يكثر

---

(١) تفسر القرآن العظيم لابن كثير ج ٢ ص ٢٨٩..

(٢) سيرة ابن هشام.. الجزء الثاني ص ٦٦.

الابتهال والتضرع. وجعل يهتف بربه عز وجلّ ويقول: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك».. ويرفع يديه إلى السماء، حتى سقط رداؤه عن منكبيه.. وجعل أبو بكر يلتزمه من ورائه، ويسوي عليه رداءه ويقول: مشفقاً عليه من كثرة الابتهال - يا رسول الله كفك بعض مناشدك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك[1].

ودارت المعركة، واشتد رحاها، وزاد هولها، وتفاقم وضعها، وحمى وطيسها.. وانعقد غبار الأرض فوق رؤوس المقاتلين.. وهم بين كَرٍّ وَفَرٍّ.

جنود الإيمان استسلموا لله الواحد الرحمٰن:

وجنود الإيمان قلة.. ولكن عقيدتهم جعلتهم كثرة.. أو قلة تفوق الكثرة.. لأن الإيمان يحيل الإنسان إلى شخص غير عادي..

والملائكة تتحرك لتثبت في المؤمنين روح اليقين والتضحية.. أما جبابرة الكفر والوثنية.. فرغم عدتهم وكثرتهم فقد تهاوى كيانهم أمام مطارق الإيمان وتبلد حسهم أمام ضربات الحق..

وصاح قائد المسيرة الإسلامية محمد عليه الصلاة والسلام وهو يرى كبرياء الكفر والإلحاد يتمرغ في تراب الأرض، قائلاً: «شاهت الوجوه..»..

وانتصر المسلمون في أول معركة يخوضونها.. وكان انتصارهم عظيماً.. ولهذا سجله التاريخ، وسيبقى أبد الدهر مثلاً حياً للبطولة في سبيل الله..

ويقول أحد قادة الفكر الإسلامي محللاً الفرق بين قوة المسلمين وقوة القرشيين الكفرة: «تقدم الرسول إلى بدر بكتيبة ليس لها من معدات الجيوش

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم وأحمد (انظر فقه السيرة للعالم الشيخ محمد الغزالي ص ٢٤١). طبعة دار الكتب الحديثة.

ما لقريش. فقد كانت الخيالة فيها لا تزيد على فارسين في رواية وثلاثة في رواية أخرى.

ولم تكن لها دروع، ولا سلاح، غير السيوف.. بل لم يكن لها ما يكفي من الإبل لحمل العتاد والرجال..

هذا على حين كان لقريش العدد والعدة، فان عدد فرسانها مائة فارس وكان مشاتها ثلاثة أضعاف المشاة من أصحاب الرسول، وكان معها من الإبل ما يكفي لأن يذبحوا لطعامهم عشرة كل يوم، وكان كل ما يعرف من أنواع السلاح، إذ ذاك ـ متوفراً لها. ثرائها، واستعدادها الدائم للحرب وخصوصاً هذه المعركة..

ولكن شيئاً آخر عظيماً كان متوافراً لأصحاب الرسول، فاستعاضوا به عما ينقصهم من العدد والعدة..

أما هذا الشيء العظيم، فهو أمور ثلاثة:

الأول: النظام، فإن التربية الإسلامية سواء أكانت في صورة العبادة، أم تلقين عقيدة التوحيد، أم إرجاع الأمر إلى الله مع حسن العمل، أم الإيمان بالمساواة في عمل الدنيا والآخرة، أم إيثار الشهادة في سبيل العقيدة على الحياة، وما يتعلق بها من أحوال الأهل والعشيرة.

وكذلك انطباع نفوسهم بطاعة الرسول، وأولى الأمر منهم.

إن هذه التربية أحدثت فيهم قوة جديدة.. لم يكن العرب يعرفونها من قبل تلك هي قوة النظام التي رجحت بها كتيبة المؤمنين على جيش المشركين..

الثاني: القوة المعنوية التي ملأ بها الإسلام نفوسهم، وشحن بها قلوبهم، فإنهم كانوا يؤمنون بالبعث، فهم لذلك لا يرون في الموت فناءاً مطلقاً، بل يرون أن وراءه ـ مع إدارك فضل الشهادة ـ حياة أبقى وأسعد من هذه الحياة..

الثالث: وحدة القيادة، فقد كان المسلمون ممتازين بها، يتفانون في الإخلاص والطاعة لقائدهم، وذلك من الأمور التي ضاعفت قواهم[1]. .

والخلاصة. . أن قتلى قريش في هذه المعركة خمسة أمثال قتلى المسلمين وكان أسراهم مثل قتلاهم. .

ولكن ليس المهم في بدر. عدد القتلى ولا عدد الأسرى ولا مقدار الغنائم التي غنمها المسلمون. . وإنما المهم. . أن أعداء الرسول محمد صلوات الله وسلامه عليه والمسلمين دفنوا في وادي بدر سيادتهم على الجزيرة العربية. .

وأن قوى الشر الجامحة مهما أعدت نفسها، فإن قوى الإيمان أقوى منها. .

والإيمان هو الفاعلية المحركة لأبناء الأمة الإسلامية. وهو القاعدة التي أثبتت صلاحيتها في كل المعارك التي خاضها المسلمون. .

ومعركة بدر الكبرى. . تعتبر قاعدة لدولة الإسلام. . وهي أول معركة حربية يخوضها المسلمون في سبيل الإسلام. . وإن موقعة بدر لتمثل مشهداً فاتنا للعون الإلّهي لعله كان فريداً، من ناحية واحدة، في تاريخ الحرب كله. . فكثيراً ما يحدث أن يوفق جيش قليل العدد نسبياً. . ولكنه حسن التجهيز، مؤلف من جنود بواسل يمتازون بانضباطيتهم، وببراعتهم في اصطناع السلاح.

أقول كثيراً ما يحدث أن يوفق مثل هذا الجيش إلى إيقاع الهزيمة بجموع تفوقه عدداً. ولكن تعوزها مزايا متكافئة. . بيد أن الذي يجعل وقعة بدر فريدة على نحو رائع هو. . أن وجوه الضعف كلها اجتمعت في ناحية. . ووجوه القوة كلها اجتمعت في الناحية المقابلة. .

---

(١) انظر كتاب (بطل الأبطال) للأستاذ عبد الرحمن عزام ص٩٣ الطبعة الثانية لوزارة المعارف السعودية ١٣٨٩ هـ.

كان عدد أفراد الجيش القرشي ثلاثة أضعاف المسلمين الذين شهدوا تلك المعركة. وكانت صفوفهم تضم جنوداً أولى شهرة وصيت.. جنود كان القتال حرفتهم التي احترفوها عمرهم كله.. والسلاح أيضاً موفوراً في أيديهم.. بل أكثر من موفور.. وكان كل منهم يلتثم بدرع سابغة.. وكان فيهم مائة فرس، عليها مائة فارس.. وسبعمائة بعير فما كانت قوة المسلمين؟.

كان عددهم ثلث عدد عدوهم.. وكانت صفوفهم تضم نفراً من الفتيان الذين لم يبلغوا الحلم بعد.. ومن المهاجرين الطاعنين في السن، وبعض الأنصار. وكلهم ليسوا بأكفاء للمكيين المولعين بالحرب.. فما كان عدد فرسانهم وجمالهم؟ فارسين وسبعين بعيراً ليس غير..

وفيما يتصل بالعدد.. لم يكن ثمة مجال للمقارنة البتة..

وهكذا قذف بالضعف المطلق.. في وجه القوة الغامرة.. ولكن اليد الإلّهية امتدت ـ لنصرة الضعفاء ، نافخة في قلوبهم قوة ـ قوة غير قوة العدد أو العدة أو السلاح فإذا بالقوة الدنيوية تمني بالهزيمة[1]..

وإلى هذه الظاهرة، يلفت القرآن الكريم الانتباه في الآية التالية: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين، والله يؤيد بنصره من يشاء أن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار﴾[2]..

وإنما كانت معركة بدر، من ناحية، ضربة قاضية وجهت إلى قوة المشركين.. على حين أنها رسخت، من ناحية ثانية جذور الإسلام..

وإلى هذا فقد خلفت أثراً رائعاً في نفوس اليهود، وفي نفوس القبائل

(١) حياة محمد ورسالته ص ١٣٩ ـ ١٤٠. للعالم الباكستاني مولانا محمد علي ترجمه منير البعلبكي الطبعة الثانية. دار العلم للملايين. ببيروت سنة ١٩٦٧ م.
(٢) سورة آل عمران آية ١٣.

البدوية المجاورة أيضاً.. لقد قالوا في ذات أنفسهم: كيف تأتي للمسلمين أن يهزموا مثل هذا الجمع العظيم؟ لا ريب في أن الله قد أيدهم بروح منه.. ثم أنهم دهشوا إذ رأوا كيف صرع ألد أعداء الإسلام في غير ما استثناء[1]..

أليس في ذلك ما يؤذن بأن يدالله قد عملت عملها؟ وثمة حقيقة أخرى واضحة في معركة بدر وهي أن الرسول كان في قلب الميدان يبتهل إلى الله بعينين دامعتين.. على حين كان أبو جهل من ناحية أخرى يبتهل إلى الله أيضاً أن يهزم أيا من الفريقين المتناحرين، كان مسؤولاً عن قطع صلة الرحم وعن البلاء المتطاول.. وحتى قبل أن يفصل القريشيون من مكة.. كانوا قد ضرعوا إلى الله في الكعبة أن ينصر من كانوا على الحق..

وهكذا كانت نتيجة معركة بدر.. إذا جاز التعبير.. حكماً إلّهياً على الباطل لقد حظي الحق بالتأييد الإلّهي فانتصر.. لقد أحبطت خطط العدو..

بينما وجد المسلمون في إحباطها مصداقاً للوعود الإلّهية التي أكدت لهم طوال هذه السنوات، أن الحق لا بد أن يسود آخر الأمر.. فخلال فترة المحن والبلايا المتطاولة، كانوا قد تلقوا عزاء إلّهياً.. مفاده أن كل مقاومة الكفار سوف تنهار، وأن الإسلام سوف يخرج من الصراع منتصراً..

وها هم الآن يرون ما كانوا قد آمنوا به إيماناً راسخاً يصبح حقيقة واقعة، فإذا بعدالة قضية الإسلام تتجلى لأعينهم، كالشمس في رابعة النهار[2].

نفوس صاغها الإيمان.. وصقلتها الطاعة، والتدريب، والنظام، والمشورة والأدب والوفاء والصدق والإخلاص..

---

(١) كان أبو جهل مثالاً للعناد يقاتل في شراسة وغضب ويقول:

ما تنقم الحرب الشموس مني بازل عامين حديث سني
لمثل هذا ولدتني أمي

(٢) حياة محمد ص ١٤١. الطبعة الثانية. بيروت.

وقد عبر الصحابة رضوان الله عليهم، والجنود الذين شهدوا المعركة، وخاضوا غمارها غير هيابين ولا وجلين.. عبروا بشعر حيوي، وكلمات حية، من واقع المشهد العظيم والمعركة الحاسمة.. وجدير بأبناء أُمتنا أن يهتموا بهذا الشعر الذي قيل في المناسبة ذاتها ويروا ما فيه من قوة، ودقة تصوير..

وقد فعلت خيراً كلية اللغة العربية بالرياض.. حيث أبرزت هذا الشعر، في موسوعة أدب الدعوة الإسلامية، وتصدر تباعاً في أجزاء.. وقد حقق هذا الشعر تحقيقاً علمياً، توفرت له الإمكانات المادية المطلوبة..

وسوف اختار قصائد قيلت في معركة بدر الكبرى.. وسجلتها كتب الأدب والتاريخ والسير. ويعلم الله.. أنني تفاعلت مع هذه الروائع الأدبية.. التي جاءت بها قرائح المؤمنين المقاتلين في بدر..

يقول عليّ بن أبي طالب:

ألم تر أن الله أبلى رسوله
بلاءَ عزيز ذي اقتدار وذي فضل
بما أنزل الكفار دار مذلة
فلاقوا هواناً من أسار وقتل
فأمسى رسول الله قد عز نصره
وكان رسول الله أرسل بالعدل
فجاء بفرقان من الله منزل
مبينة آياته لذوي العقل
فآمن أقوام بذاك وأيقنوا
فأمسوا بحمد الله مجتمعي الشمل
وأنكر أقوام فزاغت قلوبهم
فزادهم ذو العرش خبلاً على خبل
بأيديهم بيض خفاف عصوا بها
وقد حادثوها بالجلاء وبالصقل

فكم تركوا من ناشىء ذي حمية
صريعاً ومن ذي نجدة منهم كهل
تبيت عيون النائحات عليهم
تجود بأسبال الرشاش وبالوبل
دعا الغي منهم من دعا فأجابه
للغي أسباب مرمقة الوصل
فأضحوا لدى دار الجحيم بمعزل
عن الشغب والعدوان في أشغل الشغل

ويقول كعب بن مالك، في قصيدة بعنوان: «جزاء الكافرين» تبين موقف طغاة قريش من الدعوة، وتشرح بسالة المؤمنين وتمشي مع معركة بدر في خطواتها حتى تصل إلى نص الله..

عجبت لأمر الله والله قادر
على ما أراد ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقي معشراً
بغوا، وسبيل البغي بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم
من الناس حتى جمعهم متكاثر
وسارت إلينا لا تحاول غيرنا
بأجمعها كعب جميعاً وعامر
وفينا رسول الله والأوس حوله
له معقل فيهم عزيز وناصر
وجميع بني النجار تحت لوائه
يمشون في الماذي والنقع ثائر
فلما لقيناهم وكل مجاهد
لأصحابه مستبسل النفس صابر

وقد عربت بيض خفاف كأنها
مقاييس يزهيها لعينك شاهر
بهن أبدنا جمعهم فتبددوا
وكل يلاقي الحين، من هو فاجر
فأمسوا وقود النار في مستقرها
وكل كفور في جهنم صائر
تلظي عليهم وهي قد شب حميها
بزير الحديد والحجارة ساجر
وكان رسول الله قد قال: أقبلوا
فولوا وقالوا: إنما أنت ساحر
لأمر أراد الله أن يهلكوا به
وليس لأمر حمة الله زاجر

ويقول حمزة بن عبد المطلب في قصيدة بعنوان: «اليوم الفاصل».

فكانوا غداة البئر ألفاً وجمعنا ثلاث مئين كالمسدمة الزهر
وفينا جنود الله حين يمدنا بهم في مقام ثم مستوضح الذكر
فشد بهم جبريل تحت لوائنا لدى مأزق فيه مناياهم تجري[1]..

وقد اخترت هذه الأبيات من شعر الدعوةالإسلامية.. وثمة قصائد أخرى رائعة فحسان بن ثابت له قصيدة بعنوان «أصحاب القليب».

وحمزة بن عبد المطلب له روائع بعنوان «اليوم الفاصل» وقد اخترت منها ثلاثة أبيات تمثل الفارق بين القوتين.. ولشاعر مجهول أبيات في «وقعة مذكورة».

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٠٧ وشعر الدعوة الإسلامية المجلد الأول ص ٢٤٣، ٢٤٤ والمسدمة: الفحول الهائجة.

وكعب بن مالك يعتز بعقيدته وانتصار المسلمين. . فيطلق أبياتاً تحت عنوان: «ارتقبوا بدراً أخرى»[1]. .

وجميع ما ورد في غزوة بدر الكبرى، يمثل ثروة لغوية وأدبية غنية بالحقائق التاريخية والمواقع الحربية. . وفيها ما يفيد الأمة. . ونحن أحوج ما نكون إلى دراسة هذه القصائد التي قيلت في بدر من أناس شهدوا بدراً الكبرى، فاتحة الانتصارات الإسلامية. . ضد الغرور والباطل.

ومعركة بدر. . فيها قوة ضخمة وقواعد فكرية، وموضوعات برزت إلى الوجود لتكون أسلوباً في الحياة وسلوكاً في المجتمع. .

ـ لقد كانت غزوة بدر الكبرى فرقاناً بين الحق والباطل. فرقاناً بين الحق والباطل فعلاً، وبمعنى أشمل وأوسع وأدق وأعمق. الحق الذي يتمثل في تفرد الله سبحانه وتعالى بالإلوهية والسلطان والتدبير والتقدير، وفي تفرد الكون كله سمائه وأرضه لهذه الإلوهية.

ويقصد بالباطل: الزائف الطارىء الذي كان يعم وجه الأرض إذ ذاك، ويقيم في الأرض طواغيت تتصرف في حياة عباد الله. ومن واقع هذين المعنيين لكلمة الحق والباطل كانت معركة بدر فرقاناً بين الحق والباطل. .

ـ وكانت معركة بدر الكبرى فرقاناً بين عهدين في تاريخ الحركة الإسلامية عهد الصبر والمثابرة والتجمع والانتظار، وعهد القوة والحركة والمبادرة والمبادأة والاندفاع. .

ـ وكانت معركة بدر الكبرى فرقاناً بني عهدين في تاريخ الإنسانية. فالإنسانية قبل الإسلام هي غير الإنسانية بعد قيام الإسلام ومنهج الله الذي ارتضاه لإصلاح خلقه.

ـ وكانت معركة بدر الكبرى فرقاناً بين تصورين لعوامل النصر وعوامل

---

(1) راجع الدعوة الإسلامية. المجلد الأول من ص ٢٣٥ ـ ٢٤٧. .

الهزيمة فجرت عوامل النصر الظاهرية في صف المشركين وجرت عوامل الهزيمة الظاهرية في صف المؤمنين حتى لقد قال المنافقون والذين في قلوبهم مرض «غير هؤلاء دينهم» وقد أراد الله أن تجري المعركة الأولى بين المؤمنين والكافرين على هذا النحو لتكون فرقاناً بين تصورين وتقديرين لأسباب النصر والهزيمة لتنتصر العقيدة الصحيحة، ذات العدد القليل من الرجال، على الكثرة العددية ذات العتاد والسلاح ليتبين للناس أن النصر للعقيدة الصالحة لا لمجرد السلاح، وليتبين أن على أصحاب العقيدة الإسلامية أن يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة مع الباطل ودعائه غير منتظرين حتى تتساوى القوى المادية والظاهرية لأن المؤمنين بالله يملكون قوة الإيمان بالله، وهي قوة لا تضارعها قوة في شد الأعصاب وشحن الدماء بالتضحية والحماس. .

ـ لقد كانت معركة بدر الكبرى إشارة لتقرير حقيقة كبرى هي: أن الحق لا يحق والباطل لا يبطل في المجتمع الإنساني، بمجرد البيان النظري للحق والباطل ولا بمجرد الاعتقاد النظري بأن هذا حق وهذا باطل.

بل إن الحق لا يحق ولا يوجد في واقع الناس وإن الباطل لا يبطل ولا يذهب من دنيا الناس إلّا بأن يتحطم الباطل ويعلوا سلطان الحق.

ـ والحديث عن معركة بدر الكبرى هو في الواقع حديث عن مدى ما يفعله الإيمان الصادق بالله في هدم صروح الكفر والطغيان.

والحقيقة أن الصراع في معركة بدر الكبرى لم يكن صراعاً بين القريشيين وبين المؤمنين من أصحاب الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، وإنما كان صراعاً مع الباطل في كل مكان على وجه هذه الأرض مهما تعددت المظاهر والأشكال.

وسوف تبقى معركة بدر معيناً لا ينضب عند المؤمنين بالله سبحانه وتعالى، يستمدون منها العظة والاعتبار، ويسترشدون بضيائها في مواجهة تحديات العصر التي تواجه المسلمين من الشرق والغرب.

أولاً : أرسل الله رسوله محمد بالهدى، ودين الحق ليظهره على الدين كله وكان بقدرته ـ تعالى ـ أن ينصر الإسلام منذ الصيحة الأولى التي أطلقها محمد ﷺ فوق جبال مكة: «يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الجبل. أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: أني رسول الله إليكم جميعاً، فرد عليه أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا».

فكانت هذه الصيحة من الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك الجواب من أبي لهب إيذاناً بتفجير المعركة بين الحق والباطل مدة عشرين سنة حتى أظهر الله الحق. وهزم الباطل «ليحق الحق ويبطل الباطل»وكان بقدرته ـ تعالى، منذ تلك الساعة ـ أن يفتح قلوب قريش للنور فيدخلوا في دينه أفواجا، ويريح المسلمين من تلك السلسلة الطويلة من التعذيب فوق رمضاء مكة وفي شعب بني هاشم ويكفيهم عناء الهجرة، ومفارقة الأهل والوطن.

وكان بقدرته ـ تعالى ـ أن يؤلف بينهم ويجمع أهل مكة على دعوة محمد ﷺ، فيضربون في الأرض لنشرها قبل خروج المسلمين بعشرات السنين.

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث أبداً. فلماذا تسير الأمور بهذا الطريق الوعر والله قادر على أن يسيرها في طريق كله سهولة وراحة وأمان؟.

إن الله سبحانه وتعالى وقد بعث رسوله رحمة للناس لخبير بنفوس الأجيال

البشرية وتقلباتها، فلو فعل شيئاً من هذا، لما كان للحق قيمة، ولا للجنة ثمن ولا للبشرية أمثلة حية من المثل يحتذيها ويتسابق إليها الناس، ولجاء من شياطين الأنس من يقول: إن دعوة محمد كانت تستهدف تسلط العرب على غيرهم، وإن قريشاً اعتنقت دين الإسلام مدفوعة بمصالحها ولأصبحت الجنة رخيصة يلجها الكامل النشيط والخامل الكسول ولما تبلورت رابطة العقيدة التي ترفض أية رابطة عداها.

ولما عرف الإيمان من النفاق، والعمل من القول، والتضحية من الدعوى الزائفة.

اختار الله للإسلام هذا الطريق الشائك الذي عبر عنه الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله: «حفت الجنة بالمكاره» لتكون مبادىء الإسلام عملاً حياً.

فما كان الله ليوحي هذه المبادىء أقوالاً تتنزل في كتاب، ثم يطالب الناس بتطبيقها وما كان ليستنفر المسلمين إلى العالم يطالبون الناس باتباع الحق وحده، والاستهانة بكل شيء عداه من روابط الدم والنسب والمصالح والأرض. وأن يقاتلوا في سبيل الله.

من هنا كان يوم بدر، بدر السماء المطل على الأرض فيضيء للبشرية ليلها المظلم بالجهل. بدر الفرقان بين الحق والباطل. بدر المؤمنين المجاهدين في كل زمان ومكان، ليظل نبراساً لهم يمنع غواية الشياطين بالكسل والتثبيط، أو اليأس والقنوط.

وما زالت أعجوبة من أعاجيب الزمن، تمد العاملين بالقوة والثبات واليقين القوى الراسخ بأن الأمر لله، وأن الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدراً.

ثانياً: إن الحرب النفسية قبل المعركة قد كان لها تأثيرها الفعال في قلوب الكفار. فيحدثنا التاريخ: «أن عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت رؤيا

أفزعتها، فبعثت إلى أخيها العباس فقالت: يا أخي والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني وتخوفت على أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتم عني ما أحدثك به. فقال لها: وما رأيت؟ قالت: رأيت راكباً أقبل على بعير له، حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث.

فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه. فبينما هم حوله مثل به بعيره عى ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها، ألا انفروا ياآل غدر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى، حتى إذا كانت بأسفل الجبل أرفضت «أي تجزأت أو تحطمت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منه فلقة»[1].

قال العباس والله إن هذه لرؤيا.. وأنت فاكتميها ولا تذكريها لأحد.

ثم خرج العباس، فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة وكان صديقاً له، فذكرها له واستكتمه إياها. متناسياً أن كل سر جاوز الاثنين شاع وذاع حتى يملأ الأسماع والبقاع. والوليد نفسه حدث أباه عتبة، ثم فشا الحديث بمكة حتى تحدثت به قريش في أنديتها وأخذت تتوقع شراً أو نائبة تصيبها. ومما لا شك فيه أن هذه الرؤيا وأمثالها أشبه بالحرب النفسية كما تسمى في هذا العصر.

هذا ومن طريف ما يروى أيضاً. أن قريشاً لما نزلت بالجحفة، رأى جهم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف رؤيا هائلة: فقال: «إني رأيت فيما يرى النائم وإني لبين النوم واليقظة إذ نظرت إلى رجل أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له ثم قال: «قتل عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وأبو الحكم بن هشام المشهور بأبي جهل وأمية بن خلف وفلان وفلان، ثم

(١) راجع سيرة النبي لابن هشام.

رأيته ضرب في لبة بعيره، ثم أرسله في العسكر، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلّا أصابه لفح من دمه».

ولما بلغت هذه الرؤيا أبـا جهل قـال: «وهذا نبي آخـر من بني عبد المطلب، سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا».

وهكذا تضافرت الحرب النفسية قبل الحرب الساخنة، حيث شدت من عزائم المسلمين وقوت معنوياتهم وأوهنت من قوى المشركين وفتتت في عضدهم.

ثالثاً: يخرج المسسلمون الثلاثمائة وأربعة عشر رجلًا لا يحملون إلّا السيوف في أغمادها فيجدون أنفسهم أمام أعداء يبلغـون ثلاثة أضعافهم مستعدين كامـل الاستعداد. فيقف المسلمون أمام هذه المصادفة العجيبة وهم يبعدون عن مدينتهم يثرب مئات الأميال حيث لا يقدرون على استنفار من فيها، فماذا يفعلون؟ وماذا تفعل أية جماعة تقف هذا الموقف؟ لا يملكون إلّا أن يتسلحوا بالحقيقة التي وعوها، وربطوا أنفسهم بها وهي أن الله معهم أينما كانوا «إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم، إذ يريكم الله في أعينكم قليلًا ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور وإذ يركموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً وألى الله ترجع الأمور».

إن المعركة شاخصة بمواقع الفريقين فيها، وشاهدة بالتدني الخفي من ورائها أن يد الله تكاد ترى، وهي توقف هؤلاء هنا، وهؤلاء هناك. والقافلة من بعيد والكلمات تكاد تشف عن تدبير الله في رؤيا الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي تقليل كل فريق في عين الفريق الآخر. وفي إغراء كل منهما بالآخر.

وما يملك إلاّ الأسلوب القرآني الفريد، عرض المشاهد، وما وراء المشاهد بهذه الحيوية، وبهذه الحركة المرئية.

وذلك أن المسلمين حين خرجوا من المدينة، نزلوا بضفة الوادي القريبة من المدينة. ونزل جيش المشركين بقيادة أبي جهل بالضفة الأخرى البعيدة من المدينة وبين الفريقين ربوة تفصلهما، أما القافلة فقد مال بها أبو سفيان إلى ساحل البحر أسفل من الجيشين.

ولم يكن كل من الجيشين يعلم بموقع صاحبه، وإنما جمعهما الله هكذا على جانبي الربوة لأمر يريده. حتى لو أن بينهما موعداً، على اللقاء ما اجتمعا، بمثل هذه الدقة والضبط من ناحية المكان والموعد.

وهذا ما يذكر الله به عباده المؤمنين ليبين لهم تدبيره وتقديره (إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً).

إن الموقعة بظروفها التي صاحبتها، تحمل بينة لا تجحد، وتدل دلالة لا تنكر، على تدبير وراء تدبير البشر، وعلى قوى وراءها غير قوة البشر.

إنها تثبت لهذا الدين رباً يتولى أصحابه، متى أخلصوا له وجاهدوا في سبيله وصبروا وثبتوا.

وإنه لو كان الأمر إلى القوى المادية الظاهرة، ما هزم المشركون ولا انتصر المسلمون.

وإن وقوع المعركة بين جند الحق، وجند الباطل، واستعلاء سلطان الحق في عالم الواقع بعد استعلائه في عالم الضمائر.

إن هذا كله مما يعين على جلاء الحق للعيون والقلوب. وعلى إزالة اللبس في العقول والنفوس. بحيث يتبين الأمر بهذا الفتح، ويتجلى. فلا تعود لمن يختار الهلاك شبهة في الحق، الذي استعلن واستعلى، كما أن الذي يريد أن يحيا لا يعود لديه شك في أن هذا هو الحق الذي ينصره الله.

وإن هذا كله يعطي درساً علمياً للبشرية كلها: أن لا تبدد جهودها وطاقاتهـا في التخطيط والإعـداد، وتنسى أن تضع على رأس تـدبيرهـا وإعدادها، التفويض لمشيئة الله.

رابعاً: من طريف ما رواه عامر بن سعد عن أبيه، قال: رأيت أخي عمير بن أبي وقاص، قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ، يتوارى فقلت له: ما بالك يا أخي؟ قال: (إني أخاف أن يراني رسـول الله ﷺ ويستصغرني فيردني، وأنا أحب الخروج، لعل الله يرزقني الشهادة).

الله أكبر لهذه القلوب الواعية، والنفوس السامية النقية ما أعظمها وما أجلها.

قال عامر بن سعد: فعرض على رسول الله ﷺ فاستصغره فقال: «إرجع» فبكى عمير، وعندئذ أجازه رسول الله ﷺ. وقاتل في معركة بدر، حتى اسشتهد وهو ابن ست عشرة سنة.

وأخذ الناس يتسابقون في الخروج مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وهذا سعد بن خثيمة يخرج مع أبيه، ويقول: «إنه لو كان غير الجنة آثرتك به، إني لأرجو الشهادة في وجهي هذا، فأجابه والده: «آثرني وقر مع نساءك» فأبى سعد، فقال الأب: «إنه لا بد لأحدنا أن يقيم، فأسهما، فخرج سهم سعد وحقق الله له أمنيته بالشهادة».

قال تعالى: ﴿فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومـا بدلـوا تبديلا﴾.

خامساً: قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم

فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾.

وفي هذه الفقرات القليلة تحتشد معان وإيحاءات. وقواعد وتوجيهات. وصور ومشاهد. وتشخص مواقف من المعركة، كأنها حية واقعة، وتتكشف خواطر ومشاعر وضمائر وسرائر.

إنها تبدأ بنداء الذين آمنوا في سلسلة النداءات المتكررة للمسلمين وتوجيههم إلى الثبات عند لقاء الأعداء، وإلى التزود بزاد النصر والتأهب بأهبته.

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعلمون محيط﴾.

فهذه هي عوامل النصر الحقيقية كما أعربت عنها الآية الكريمة وهي:

١ ـ الطاعة لله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم.
٢ ـ الاتصال بالله بالذكر والتوكل والاعتماد عليه وحده.
٣ ـ الثبات عند لقاء العدو.
٤ ـ الصبر على تكاليف المعركة.
٥ ـ تجنب النزاع والشقاق والاختلاف.
٦ ـ الحذر من البطر والبغي والغرور والصلف.

وإذ أن الأمر كذلك. فالتدبير تدبير الله، والنصر من عند الله والكثرة العددية، ليست هي التي تكفل النصر، والعدة المادية ليست هي التي تقرر مصير المعركة.

فليثبت الذين آمنوا إذن حين يلقون الذين كفروا. وليتزودوا بالعدة الحقيقية للمعركة وليأخذوا بالأسباب الموصولة بصاحب التدبير والتقدير، وصاحب العون والمدد وصاحب القوة والسلطان وليتجنبوا أسباب الهزيمة

التي هزمت الكفار على كثرة عددهم وعدّتهم وليتجردوا من البطر والكبرياء والباطل. وليحترزوا من خداع الشيطان. وليتوكلوا على الله وحده، ويستعينوا به وحده.

سادساً: يقف الرسول عليه الصلاة والسلام قبيل المعركة رافعاً يديه إلى السماء قائلاً: «اللهم أن تهلك هذه العصابة فلن تعبد على الأرض بعد اليوم أبداً».

فلا تمضي لحظات، حتى ينزل جبريل عليه السلام على رأس وفد كبير من ملائكة السماء وإذا بالوحي يبشر: (إذ تستغيثون َربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلاّ بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلاّ من عند الله إن الله عزيز حكيم).

فشحن القلوب بالثبات، وملؤها بالشجاعة، إنما هو أمر ينفرد به الله، جعله من أمره وحده، وأن نصره يهبه لمن يدعوه من الأطهار والبررة.

ولقد هيأ للمؤمنين كل أسباب الثبات والشجاعة، فأراهم من الأمثلة الواقعية لتأييده، ما ملأ قلوبهم بالاطمئنان والثقة بالنصر الأكيد.

ومن ذلك أن أرسل الله عز وجل عليهم النعاس، لترتاح أجسامهم المكدودة من السير في الصحراء، ولولا الله ما نامت عيون هذه القلة المجردة من العدة «إذ يغشيكم النعاس أمنة منه».

وأرسل عليهم المطر آية في مكان وطريقة نزوله، في بقعة لا ترى المطر، ليتطهروا ويشربوا، فيرون المعجزة بأعينهم وتخرج الوساوس من أفئـدتهم «وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام».

وقلل الكافرين في أعينهم، ليذهب روعهم، ويشد سواعدهم «وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً».

سابعاً: إن أهل بدر يعودون شاكرين الله عز وجلّ لما حباهم من المغفرة والنصر فيندم مؤمنون في المدينة، لأن الفضل فاتهم، فلم يشتركوا فيه، ويفرح مؤمنون ظلوا في مكة يكتمون إيمانهم، ولكن روابط الأرض والثروة شدتهم فمنعتهم من الهجرة، فيتنزل الوحي، يواسي المحزونين الذين تخلفوا في المدينة، بأنه لم يفتهم شيء، وينعى على الفرحين المتخلفين في

مكة «إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولا يتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلّا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم» . .

هذا هو الإيمان الصحيح. الإيمان المقرون بالجهاد بالمال والنفس المصحوب بالالتفاف حول دعاة الحق وإيوائهم ونصرهم.

أما الإيمان المجرد من الجهاد، فلا يستحق ذووه أي نصرة من المسلمين «والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلّا على قوم بينكم وبينهم ميثاق».

وضرورة هذا الإيمان العملي، ضمن الصف العامل لها علة هامة فأهل الكفر لا يمارسون كفرهم بشكل فردي، وإنما يتجمعون ويشنون حرباً على الإيمان وأهله لا هوادة فيها ولا لين. فإن لم يواجههم المؤمنون بإيمان جماعي حركي كذلك، تنتقل القيادة العالمية إلى أهل الكفر والإلحاد قال تعالى: ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ . .

والنتائج المترتبة على كلا الإيمانين: الفردي الخامل، والجماعي المتحرك نتائج متباينة كل التباين، فبينما يكون أصحاب الإيمان الفردي مستضعفين في الأرض ـ ومعذبين في الآخرة قال تعالى: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض﴾. نجد أصحاب الإيمان الحركي يوصفون بالإيمان الحق ويجزون المغفرة والرزق الكريم الذي يحفظ الكرامة قال تعالى: ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم﴾ . .

ثامناً: يعلمنا الإسلام في هذه الدروس «أن من وجد الله لم يفقد شيئاً وإن من فقد الله لم يجد شيئاً».

ولو قدر أن تنمر الباطل وأصحابه. وضعف الحق وآله فما ذلك إلّا فترة عابرة تتحول إلى ذكرى لذيذة. ولهذا يقول الله تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾.

تاسعاً: جاء الإسلام ليعلمنا أن الحياة قصة صراع بين الحق والباطل، وإن طبيعة هذا الصراع، طبيعة متميزة متفردة، ومن خصائصها البارزة أن جند الحق في الفترات التي يبدون فيها ضعفا، إنما هم في الحقيقة أقوياء، وحين يتراءى للبشرية أن أركان الباطل أنشبت أظفارها بأعناق جند الحق. فما ذلك في الحقيقة إلّا تدريب أهل الحق على تحمل كل ألوان الصعاب. ولينفضوا عن نفوسهم غبار الشهوات حتى يصبحوا في المستقبل جنود فداء ينقضون على الباطل في كل مكان. والجولة الأخيرة هي الحق في الدنيا والآخرة.

فما أعظم الدروس المستفادة من غزوة بدر. وهي في بساطتها وتجردها تتجلى فيها مثل من السياسة النبوية الحكيمة، ونماذج من الأخلاق الإسلامية الكريمة ويتجلى فيها الإيمان الذي تغلب على قوى الشرك والطغيان نصر المسلمون الحق فنصرهم الله على عدوهم وأيدهم بملائكة من السماء.

هذه المعركة تعد نموذجاً فريداً للأمة المجاهدة الماجدة، ومثلاً أعلى للأجيال الناهضة من الشبيبة الصاعدة. وهي من المعارك الخالدة في تاريخ المسلمين.

عاشراً: ما أعظم ذلك الترابط القوي بين القيادة والجند في المعركة والاجتماع على هدف واحد كبير.

لقد كانوا جميعاً يعتبرون المعركة معركتهم، غير مفروضة عليهم ولكنها نابعة من قلوبهم وإيمانهم، يستوي في هذا المهاجرون والأنصار.

يستشير الرسول المهاجرين فيتكلم عنهم المقداد بن عمرو. «يا رسول الله أمض لما أمرك الله فنحن معك...».

ويستشير الأنصار فيتكلم عنهم سعد بن معاذ قائلًا: «فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد...».

فهذه صورة مجتمع تتمثل فيه الشورى بأجلى وأعظم معانيها، وإذا

شئت تعبيراً حديثاً استطعت أن تؤكد ديمقراطية هذا المجتمع الإسلامي الأول. تكلم أبو بكر الصديق وتكلم عمر بن الخطاب وتكلم المقداد بن عمرو عن المهاجرين وتكلم سعد بن معاذ عن الأنصار فكانت النتيجة التي وصلوا إليها، والقرار الذي اتخذوه ثمرة ومشاورة وحوار مفتوح. واستمرت هذه المشاركة الإيجابية وقالت رأيها في (تكتيك) المعركة بعد أن قالته في استراتيجيتها.

فعندما جاء المسلمون ماء بدر، نزلوا أدناه وتركوا أمامه عدداً من الآبار يمكن أن يستقي منها المشركون. ورأي أهل المدينة أن المكان الذي اختاره الرسول صلى الله عليه يحتاج إلى تغيير. فتقدم الحباب بن المنذر الأنصاري، يخاطب الرسول قائلاً: يا رسول الله. أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتعداه ولا نقصر عنه. أم هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال الرسول: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

قال الحباب: يا رسول الله. ليس هذا بمنزل. ولكن انهض حتى تجعل القلب (الآبار) كلها وراء ظهرك ثم غور (أردم) كل قليب بها إلا قليباً واحداً، ثم أحفر عليها حوضاً، فنقاتل القوم ونشرب ولا يشربون، حتى يحكم الله بيننا.

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «أشرت بالرأي» وفعل ذلك ومنذ ذلك الوقت أصبح الحباب يدعى «ذو الرأي»[1].

---

(١) انظر كتاب الدين والحياة. د. عبد العزيز كامل.

فتح مكة

انتصار الحق أمل يراود القلوب المؤمنة بعد ليل عابس، كان مقدمة لتربية شاقة وصعبة . .

والانتصار طريق يحتاج إلى الصمود، والنضال، والتضحية. والجدية في تحمل المسؤولية ولا بد للحق من صعاب تقابله، ونكسات تصادفه. وتلك سنة الله والحق قوة لا تدانيها قوة.

وفي السنة الثامنة من الهجرة وفي العشرين من شهر رمضان كان فتح مكة. حيث انقضى على صلح الحديبية سنتان اثنتان وجو السلم الذي ترتب على الصلح أدى إلى ازدياد الداخلين في الإسلام وانتشاره في الأنحاء . .

ولهذا أصاب قريشاً، قلق شديد أدى هذا القلق إلى نقض الصلح وكانت قبيلة «خزاعة» قد أفادت من الصلح فدخلت في عهد المسلمين . . على حين دخل أعداء خزاعة «بنو بكر» في عهد المكيين. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل اندفعت بنو بكر لتغير على خزاعة وقريش تنتصر لبني بكر . .

والتمست خذاعة الحرم . . حيث يحظر سفك الدماء ومع هذا فقد استمر عليهم العدوان وقتل منهم عدد كبير، وقريش تساعد على العدوان وسفك الدماء، غير عابئة بصلح الحديبية وفزعت خزاعة لما حل بها، فبعثت إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام «عمرو بن سام» على رأس وفد خزاعي، يستنصر الرسول، وفقاً لأحكام التحالف . .

فلما قدم المدينة، وقف على النبي ﷺ وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال:

يا رب إني ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والدا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ... إن سيم خسفاً وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لي في كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعوا أحدا ... وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا ... وقتلونا ركعاً وسجدا[1]

كذلك أقبل بديل بن ورقاء في جمع خزاعة. وشكا إلى رسول الله ﷺ أن قريشاً تظاهرت عليهم بالاثم والعدوان. وعلى أية حال فقد نصح رسول الله ﷺ للخزاعيين أن يعودوا متفرقين في صمت وسكون وهدوء..

فبعث الرسول إلى قريش.. يخبرها قبول واحد من الشروط التالية:

أولاً : إما أن تدفع ديات من قتل من خزاعة..
ثانياً: وإما أن تحل نفسها من عهد بني بكر..
ثالثاً: وإما أن تعلن أن صلح الحديبية أمسى لاغياً[2]..
وردت قريش أنها قبلت الشرط الأخير..

ولكنها أحست بالخطأ الذي وقعت فيه، غير واعية للأحداث التي غيرت مجرى الأحوال.

فأسرع أبو سفيان إلى المدينة يحاول أن يصلح ما وقع فيه القرشيون من النقض الصارخ للصلح..

(١) سيرة النبي لابن هشام ج ٤ ص ٩ طبع كتاب التحرير بالقاهرة.
(٢) حياة محمد ورسالته. ص ٢٠١ بيروت.

بيد أن رسول الإنسانية لم يغفل عن المكيدة فلم يقبل المساومة، والحلول الملتوية.

ولما خاب أمل أبو سفيان انقلب إلى مكة خائب الرجاء. وأمر رسول الله ﷺ المسلمين بالاستعداد والتجهيز، والتهيؤ للسير.

ودخل ﷺ على زوجته عائشة، وقال لها: جهزينا وأخفي أمرك.. ودخل أبو بكر على ابنته عائشة، وهي تجهز رسول الله، تعمل قمحاً وسويقاً ودقيقاً..

وسألها أبو بكر عن عزم الرسول: فقالت: ما أدري واستعجمت عليه حتى دخل رسول الله ﷺ. فقال له: يا رسول الله، أردت سفراً؟ قال: نعم.. قل: أفأتجهز؟ قال: نعم..

قال: فأين تريد يا رسول الله، فقال: قريشاً، وأخفي ذلك يا أبا بكر، وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز، وأخفى عنهم الوجه الذي يريده[1].

واستمع المسلمون لأمر القيادة الإسلامية فمضوا يعبئون قواهم، ويستعدون إلى السير مع رسول الله ﷺ..

وهكذا اتخذ الرسول الاستعدادات الضرورية وكانت قريش قد اضطهدت المسلمين وكانت قد غزت المدينة، ثلاث مرات، محاولة القضاء على المسلمين والإسلام..

وبينما المسلمون يستعدون للسير إذ برجل مسلم اسمه (حاطب بن أبي بلتعة) يكتب إلى قريش كتاباً، يخبرهم فيه بما عزم إليه الرسول وجيشه الإسلامي.

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: بعثني رسول الله ﷺ، أنا والزبير والمقداد..

(١) إمتاع الأسماع. الجزء الأول ص ٣٦١ بتصرف.

فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ «مكان» فإن بها ظعينة، معها كتاب فخذوه منها[1].

قال عليّ: فانطلقنا تعادي بنا خيلنا، حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة..

قلنا لها: أخرجي الكتاب..

قالت: ما معي كتاب..

فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب..؟.

قال: فأخرجته من عقاصها.. فأتينا به رسول الله ﷺ..

فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: يا حاطب ما هذا؟.

قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ. إني كنت امرأ ملصقاً في قريش. وكان معكْ من المهاجرين، من لهم قرابات يحبون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذا فاتني من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام..

فقال رسول الله ﷺ: أما أنه قد صدقكم.

فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق.

فقال رسول الله ﷺ: إنه قد شهد بدراً. وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً.. قال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». فأنزل الله السورة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا...﴾[2].

ونص الكتاب الذي بعث به حاطب مع سارة:

«أما بعد: فإن رسول الله ﷺ، قد توجه إليكم. بجيش كالليل يسير

---

(١) الظعينة: المرأة المسافرة. واسمها سارة وأعطاها حاطب في سبيل ذلك عشرة دنانير. وقيل ديناراً..

(٢) مسلم والبخاري واللفظ له ـ فتح الباري ج ٧ ص ٣٦٦.

كالسيل، وأقسم بالله لو لم يسر إليكم إلّا وحده لأظفره الله بكم، وأنجز له موعده فيكم، فإن الله وليه وناصره»[1] وبهذا الصدد جاء قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة. وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة. وأنا أعلم بما أخليتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾[2].

فالله سبحانه وتعالى يحذر في هذه الآية من موالاة الأعداء، وجعلهم أنصاراً يوصلون إليهم أخبار الرسول، بسبب المودة التي بينهم، والصلات القديمة لأنهم كفروا بما جاءهم به الرسول من الحق، وهو القرآن والتوحيد، وضيقوا عليه وعلى أصحابه الخناق، حتى حملوهم على الهجرة وترك بلدهم، ولم ينقموا عليهم إلّا إيمانهم بالله، وإخلاصهم العبادة له..

وقوله تعالى: ﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾.. هذا شرط وجوابه متقدم وهو قوله تعالى: ﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾..

والمعنى: إن خرجتم مجاهدين في سبيل الله تبتغون رضوان الله فلا تتخذوا أعداء الله أعداءكم أولياء، تكتبون لهم بأخبار الرسول ليأخذوا حذرهم وهو سبحانه المطلع على السرائر والضمائر. ويعلم ما يخفيه العباد وما يظهرونه علانية. فمن يوال المشركين ويطلعهم على أسرار المؤمنين فقد أخطأ طريق الهدى..

ولا شك: أن حاطباً خرج عن جادة الصواب بهذا العمل، وما كان له أن يواد المشركين وهم الذين تبجحوا بالكفران، وتظاهروا على العدوان، وصنعوا بالمسلمين ما حاطب أعلم به من غيره..

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٨ ص ٥٠، وتفسير الألوسي ج ٩ ص ٤٧.
(٢) سورة الممتحنة. الآية الأولى..

لكن الإنسان تعرض له فترات، يصغر فيها، والله أبر بعباده من أن يؤاخذهم بسورات الضعف، التي تعرو نورهم فيخبوا، وسعيهم فيكبو. .

وقد استكشف النبي ﷺ خبيئة حاطب، فعرف أنه لم يكذبه في اعتذاره، إنهم مقبلون على معركة كبيرة، قد ينهزمون فيها، فتقوم العصبيات القديمة، بحماية الأقارب الشاردين، ويبقى حاطب لا حمى له فليتخذ تلك اليد عند قريش، حيطة للمستقبل. .

ذاك ما فكر فيه حاطب، وهو خطأ، فإن المشركين لم يذكروا في عداوة الإسلام رحماً ولا أهلاً. .

وما ينبغي ـ ولو دارت علينا الدوائر ـ أن نبقى لهم وداً، وقد خاصمناهم في ذات الله. . . وأخذ علينا العهد أن نبذل في حربهم أنفسنا وأموالنا. .

ولو جاز يد عندهم، فكيف يتوسل لذلك بعمل يعد خيانة كبيرة فادحة الإضرار بالإسلام وأهله؟ على أن حاطباً شفع له ماضيه الكريم، فجبرت عثرته وأمر النبي ﷺ المسلمين أن يذكروا الرجل بأفضل ما فيه، وبهذا التقدير السمح، علمنا الإسلام ألّا ننسى الحسنات والفضائل، لمن يخطئون حيناً بعد أن أصابوا طويلاً[1].

لكن التاريخ الإسلامي تجاهل هذا الرجل إلى الأبد، فلم يسجل له شيئاً، ولم يورد ذكره في أية صفحة من صفحاته. .

وتحرك الركب الإسلامي الكبير. الذي يقدر بعشرة آلاف من أتباع الرسول الأمين إلى مكة. .

وهكذا تحققت النبوة التي انطلقت قبل ألفي عام، بين شفتي موسى: «وأتى مع عشرة آلاف من القديسين»[2].

---

(١) فقه السيرة ص ٤٠٧، ٤٠٨.

(٢) سفر التثنية ٣٣: ٢.

وليس في التاريخ بعد موسى عليه السلام أيما حادثة أخرى تتحقق بها هذه الكلمات النبوية..

يا لها من ظاهرة عجيبة. لقد كان عدد المسلمين عشرة آلاف مقاتل، وكانوا في الوقت نفسه كلهم بررة، كما جاء في النبوة[1].

وكان الجيش الإسلامي يتحرك بسرعة، يطوي الأرض والجبال، والوهاد، غير عابىء بوعورة الطريق، ولا صعوبة السفر، همه وأمله وهدفه: إقامة دين الله ونشر عقيدة التوحيد، والقضاء على الوثنية وعبادة الأصنام، والجبت والطاغوت. وعسكر المسلمون مع نبيهم في مر الظهران، على مسيرة يوم من مكة، وأمروا جميعاً بأن يوقدوا النيران في كل خيمة ومعسكر، ولا شك أن هذا الصنيع من الجيش الإسلامي يدل على الوعي العسكري لدي المسلمين، فإيقاد النار في الظلام بالقرب من مكة، وبهذه الصورة التي تدل على القوة، فيه أثر نفسي على نفوس المكيين، له فعاليته وقدرته، وحين تعلم مكة ومن يدور في فلكها، بهذا الجيش الجرار، سوف تصطدم ولا تفكر في المقاومة.

ولا شك أن القلق والاضطراب قد سرى في مكة، منذ عاد أبو سفيان من المدينة خائباً، دون تحقيق ما كان يراوده.

ورأى العباس بن عبد المطلب، أن يدخل في الإسلام هو وعياله، فهاجر من مكة إلى المدينة، وقابل رسول الله ﷺ في الطريق..

وخرج كذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبدالله بن أبي أمية فلقيا النبي ﷺ بالأبواء، وحاول أبو سفيان أن يترضى الرسول ﷺ، وأخيراً أنشد أبياتاً جاء فيها:

لعمرك إني حين أحمل راية   لتغلب خيل اللات خيل محمد

(١) حياة محمد ورسالته ص ٢٠٢ بيروت.

لكـا المـدلـج الحيـران أظلم ليله فهـذا أواني حين أهدي فـاهتدي
هــداني هــاد غيــر نفسي ودلني على الله من طـردته كـل مسطرد

وعفا رسول الإنسانية عن أبي سفيان، والقلب الذي كان موصداً دون الإسلام، تفتح للحق وانشرح بدين الله..

وأصدر قائد الأمة الإسلامية بيان العفو الشامل، حرصاً على السلامة، وتجنباً لإراقة الدماء، ودلالة على القوة في الإسلام، فما أجمل العفو عند المقدرة.

فقال ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن»[1].

ولم يكتف قائد المسيرة الإسلامية بهذا البيان، بل عمل على أن يرى أبي سفيان بعيني رأسه قوة الإسلام الزاحفة كالسيل، والمعدة إعداد قوياً..

قال العباس: فخرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادي، حيث أمرني رسول الله ﷺ، ومرت القبائل على رايتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هؤلاء. فأقول: سليم.. فيقول: مالي ولسليم؟ ثم تمر به القبيلة، فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة. فيقول: ما لي ولمزينة حتى نفذت القبائل.. ما تمر به قبيلة إلّا سألني عنها، فإذا أخبرته، قال: مالي ولبني فلان..

حتى مرّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، وفيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلّا الحدق من الحديد.. فقال سبحان الله: يا عباس من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار.

قال: ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة. والله يأبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً.

---

(١) ابن هشام. الجزء الثاني ص ٢٦٨.

قال العباس: يا أبا سفيان. إنها النبوة. . قال: فنعم إذن[1].

وراع أبو سفيان ظهور القوة الإسلامية، فانقلب إلى قومه مسرعاً، لكي ينبئهم بما رأى، وكان قبل ذلك زعيم المعارضة في قريش بعد أبي جهل.

ورأى أهل مكة جيوش الإسلام الزاحفة تقبل من بعيد، فالتفوا حول ساداتهم ينتظرون، فإذا بصوت أبي سفيان ينطلق عالياً ليذيع بيان رسول الله بالأمان، وأفهمهم أن كل مقاومة للرسول عبث ولا طائل من ورائه. .

وزحف جنود الجيش الإسلامي، على مكة من كل جانب، وكان النبي قد جعل سعد بن عبادة، على أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربي.

فقالت المرأة لفارسها المعلم: فأين ما كنت تقول: فقال يعتذر لها:

إنك لو شهدت يوم الخندقة	إذ فر صفوان وفر عكرمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمة	واستقبلهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجة	ضرباً فلا يسمع إلاّ غمغمة
لهم نهيت خلفنا وهمهمة	لم تنطقي باللوم أدنى كلمة[2]

وسكنت مكة، وبات الناس يرقبون الموقف موقف المسلمين من أهل مكة الذين عذبوهم العذاب الأليم، حتى كانت النيران توضع على ظهر المسلم فلا يطفئها إلاّ اختلاط الشحم باللحم.

وكانت الحجارة الكبيرة توضع على صدر المسلم، ووصل الأمر بتدبير خطة لقتل رسول الله.

وموقف الإسلام من هذه الحجارة الصماء التي تتزاحم في صفوف حول الكعبة واضح.

---

(1) ابن هشام ج ٣ ص ٢٦٨.

(2) فقه السيرة ص ٤١٣، ٤١٤.

وموقف الإسلام والمسلمين من صور إبراهيم وإسماعيل، وهما يستقسمان بالأزلام - لا يحتاج إلى بيان.

ولهذا ما كادت الجيوش الإسلامية تفتح مكة حتى تحرك رسول التوحيد، والعقيدة السامية محمد ﷺ نحو بيت الله، يطهره من الأصنام والأوثان، فكسر الأصنام وأزال الصور، وكان يردد كلما كسر صنماً قوله تعالى: ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾..

ومنذ ذلك الحين، لم تعرف أيما صورة أو أيما صنم طريقاً إلى جدران ذلك الحرم وأصبح بيت الله الحرام خالصاً لله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد..

وبعد أن انتهى رسول الله ﷺ من عملية التطهير، اتجه إلى مقام إبراهيم، وصلى هناك، وعندئذ دعى عثمان بن طلحة، سادن الكعبة، وفتحت أبواب البيت الحرام، ودخله الرسول وصلى بالناس هناك، ثم أعاد المفتاح إلى عثمان.. وبين له أن سدانة الكعبة سوف تظل فيه وفي أبنائه من بعده حتى يرث الله الأرض ومن عليها، لا يأخذها منهم إلّا ظالم.

ويصور أحد قادة الفكر، موقف الرسول من أهل مكة، معرباً عن أخلاق الإسلام فيقول:

ولم يكد سعد يمر بأبي سفيان زعيم المعارضة فيما مضى. حتى شعر بزمام القوة ولهذا صاح: اليوم يوم الملحمة.. اليوم تستحل الحرمة.

ولما بلغ ذلك رسول الإنسانية محمد رسول الله ﷺ، لم يرض عن هذا القول.

ولهذا أخذ الراية من سعد، وأعطاها لابنه قيس لكي يتجنب إراقة الدماء، وكان على خالد بن الوليد أن يدخل مكة من أسفلها. وكان يعتصم في ذلك الحي من أسفل مكة أشد قريش عداوة للإسلام وهم الذين ساعدوا في الحملة على خزاعة..

وعلى الرغم من الأمان العام الممنوح لجميع الناس، فإن جماعة من هؤلاء تجمعوا عند الخندمة، بقيادة عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية.. وحاولوا أن يقاتلوا خالداً وجنوده..

إلّا أن خالداً حصدهم حصداً، حتى لاذ القوم بالفرار، بعد أن قتل من هؤلاء ثلاثة عشر رجلاً، وفي رواية ثمانية وعشرون، وقد استشهد من جنود خالد بن الوليد رجلان..

وفي غضون ذلك دخل رسول الله ﷺ مكة من أعلاها، وقد رأى سيوف خالد، وهي تهوى، ولم يرض هذا، وناقش خالداً فيما حدث، حتى اطمأن.

وبعد أن أتم الرسول الأمين فتح مكة ألقى خطبة أكد فيها وحدانية الله، وأخوة البشر الشاملة..

وبعد ذلك وجه الخطاب إلى وجوه قريش المجتمعين حوله..

كانوا كلهم في وضع المذنب الجاني، فكم قد عذبوا المسلمين، ونكلوا بهم، لقد بدوا كأن ثرى مكة نفسه كان متعطشاً للدم الإسلامي..

وما كان أفظع الآلام التي أذاقوها المسلمين منتهكين في ذلك جميع النواميس الخلقية والتقليدية، إن مجرد ذكرى أشكال الاضطهاد الغريبة تلك ليوقع الرعدة في قلب المرء.

ثم إن سلطانهم لم يكن مقصوراً على ثرى مكة.. بل لقد طاردوا المسلمين حيثما فروا بأنفسهم، ملتمسين مفزعاً.. لقد هاجموا المدينة مرة بعد مرة لكي يسحقوهم سحقاً.. إلى هذا الحد كانت جريمة المكيين الواقفين الآن موقف المتهم بين يدي الرسول..

وكانوا بما تكشفوا عنه، من حقد، وانتقام، وتنكيل بالأبرياء يستحقون أقصى عقوبة من عقوبات العبرة، نص عليها أكثر قوانين العالم رحمة..

وكان أرأف ضرب من ضروب القصاص يقضي بقطع رؤوس زعمائهم

الكبار، وسجن عدد من الآخرين، لكي يكون في ذلك تحذير لسائرهم، وعبرة لهم في المستقبل.. كان ينبغي لقوتهم أن تسحق سحقاً كاملاً، لكي يمسوا عاجزين عن إحداث أيما متاعب من الأيام. إن أكثر الطرق تمديناً في مواجهة أمثال هذه الجرائم هي إنزال عقوبة من عقوبات العبرة في فريق من المعتدين، سواء أكانوا مذنبين فعلاً. أم لم يكونوا، وإخضاع سائرهم لعبودية كاملة.

ولقد كانت هذه المعاملة التي عامل بها المنتصرون مغلوبيهم دائماً وأبداً، وبالطريقة نفسها تعامل الشعوب المغلوبة. اليوم في ظل أعرق الحكومات في المدنية فغريزة الانتقام في الطبيعة البشرية، لنزاعة إلى الاستفحال والطغيان، وبخاصة حين يكون العدو تحت رحمة المرء المطلقة..

عندئذ تتخطى التخوم الخلقية كلها.. ولكن قريشاً كانت تؤمن إيماناً لا يتزعزع بما فطر عليه الرسول من طبيعة نبيلة رحيمة[1]..

وهو الذي دخل مكة من أعلاها، في غير مخيلة ولا استكبار.. مردفاً على راحلته «أسامة بن زيد».. وتكاد لحيته تلمس واسطة الرحل تخشعاً للرحمٰن، وشكراً لله الواحد الذي أكرم المسلمين بهذا الفتح..

ما أعظم هذا التواضع.. وما أصدقه..

وينطلق في رحاب بيت الله الحرام.. يقول: «لا إلٓه إلاّ الله وحده لا شريك له صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

«يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب..

يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟.

قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم..

---

(1) مولانا محمد علي في كتاب حياة محمد ورسالته ص ٢٠٥، ٢٠٦.

قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء. يغفر الله وهو أرحم الراحمين». .

استراحت نفوس القوم من هذا المنطق السليم، وأحس الناس بجرمهم الذي فعلوه مع المسلمين ورسول الإسلام، وأقبل الناس يتوافدون على الدخول في دين الله أفواجا. ولم يقبل الرسول ﷺ أن يفرض الإسلام على الناس قسراً ورغماً عنهم. .

إنما ترك ذلك، ولم يجبر أحداً، لأن النفوس عندما تتطهر من رجس الوثنية والأصنام سوف تجد الإسلام قد استقر في أعماقها. .

ونفوس البشر إذا ما توفر لها التطهير من آثار المادية المخرفة، والمؤثرات الجارفة يكون الإسلام أقرب إلى قلوبها. .

وإذا كانت رحمة رسول الله ﷺ لا تعرف حدوداً فقد منح عكرمة بن أبي جهل. ذلك العدو اللدود، الذي قاتل المسلمين في دخول مكة، منحه عفواً كريماً. .

ومن كان يتخيل أن عكرمة هذا على ما كان من عناد جامح، وكفر فاضح، وخصومة فاجرة. . سيبلغ به الأمر أن يجاهد جيش الروم على باب حمص وهو يقول: «قاتلت في الجاهلية عن الأصنام، وأقاتل اليوم في طاعة الملك العلام» ثم يلقي بمهجته بين الحراب والأسنة حتى تفتح له أبواب الجنة. .

وعفو رسول الله ﷺ. كان تربية إسلامية رائدة. . جعلت أشد الأعداء وجبابرة القوم، جنوداً من جنود الإسلام. .

وهذا أبو سفيان الذي كان زعيماً للمعارضة في قريش بعد مصرع أبو جهل. . يبلغ به الإيمان بدين الإسلام أن ينادي يوم القادسية في جيش المسلمين.

«هذا يوم من أيام الله فانصروا دين الله ينصركم». وهذا عبدالله بن أبي السرح يعلو مقامة في دين الله حتى يصبح على ميمنة من جيش عمرو بن

العاص في عهد خليفة رسول الله عمر بن الخطاب.. ثم يولي صعيد مصر الإسلامية بل مصر كلها في خلافة عثمان بن عفان.. ثم يفتح إفريقيا إلى أن يسلم أنفاس الحياة، وهو يسلم في الصلاة.. ومن واقع هذه الأمثلة الحية.. ندرك أن الفتح كان نصراً كبيراً، والعفو العام الممنوح، كان فتحاً أعظم بكثير، فتحاً وراء متناول أسلحة الجيش الإسلامي، لقد أسر قلوب الناس، وعفوه ورحمته.. أدى كل ذلك إلى تجريد المعارضة على اختلاف ضروبها ومشاربها.. ونفذت الحقيقة الإسلامية إلى أعماق القلوب..

وعرف الناس أن دين الله حق، وكم حاولوا إبادته، ومحوه من الأرض وقتل رجاله، ولم يفلحوا..

وهذا الإسلام يأتي إليهم منتصراً، وليكون له في نفوسهم أثر فعال، بعد أن عرفوا أنه حق وأنه من عند الله، ولا يمكن إطفاء شعلته، ويبدوا أن هذا الذي جعلهم من أكبر رجال الإسلام وأشدهم جهاداً في سبيله، حتى فتحو الدنيا، وعزو وسادوا..

ويقول عمر بن الخطاب في أبيات له[1]:

ألـم تـر أن الله أظهـر ديـنـه	على كـل دين قبـل ذلـك حـائـد
وأمكنـه من أهـل مكـة بعـدمـا	تـداعوا إلى أمـر من ألغى فاسـد
غـداة أجال الخيـل في عرصـاتها	مسـومـة بين الـزبيـر وخـالـد
فـأمسى رسول الله قـد عز نصـره	وأمسى عـداه من قتيـل وشـارد

والباحث والمفكر والدارس يستخرج من فتح مكة كثيراً من الدروس المستفادة. والمسلمون في حاجة إلى هذه الدروس، لينطلقوا من خلالها إلى المسيرة الإسلامية ومواجهة تحديات العصر. ومن تلك الدروس:

١ ـ حركية المسلمين، وفعاليتهم مع الدعوة المتحركة التي لا تعرف

(١) انظر: زهر الأداب للحصري القيرواني، الجزء الأول ص ٤٢، تحقيق زكي مبارك، الطبعة الثالثة ١٣٧٢ هـ.

الجمود والخمود والخمول.. وكانت هذه الحركية اليقظة.. تلبي نداء الرحمن في أي وقت، ولأي ضرب من ضروب الحياة التي يرضاها الله..

وتوطدت دعائم الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وتلألأت في الأفق بنداء الحق الذي بدا يشع في الأرجاء. وكان المسلمون أهلاً لأمر رسول الله ﷺ بالتجهيز والاستعداد، والحرص، واليقظة.. وقد دربوا أنفسهم في دولة الإسلام، وشهدوا المواقع الحربية، مع رسول الله ﷺ.. واعتزوا بالإسلام اعتزازاً يفوق كل اعتبار ومع كل هذا فلم يتخلفوا عن طاعة محمد عبد الله ورسوله الذي أرسله رب العزة بدين الحق ليظهره على الدين كله.

وحركية المسلمين وتفاعلهم مع مسيرة الدعوة كانت الأسس التي أدت إلى اطمئنان الرسول الأمين على المسيرة الإسلامية، الزاحفة كالجبال في الجبال..

٢ - التفاف الجنود حول القيادة.. دافع قوى من دوافع الخير التي يطمئن إليها القائد.. وتتوفر طاعة القيادة العليا، حينما تكون القلوب مشحونة بالإيمان الصادق والإخلاص لله.

وحينما تكون القيادة ذاتها مثلاً أعلى في التفاني والتضحية والدعوة إلى الله وإلى الحياة السليمة..

وهذا يحتاج إلى التربية الإسلامية التي تملأ الأفئدة بنور الحق، فتحيل الناس إلى أشخاص أفذاذ فوق العادة، ولا شك أن المسلمين، قد تعلموا في مدرسة القرآن الكريم حسن الطاعة، وتلبية النداء. والتضحية، وحب الاستشهاد في سبيل الله..

هانت في أعينهم الدنيا، وكان الاستشهاد أحب إليهم من الحياة..

إن مدرسة القرآن الكريم فيها دروس وعظات للشباب. وما أجدر التلاميذ الذين تتلمذوا على المصطفى ﷺ، ونهلوا من إرشاداته.. ما أجدرهم أن يكون أهلاً لتحمل المسؤولية، وطاعة القيادة.. وقد كانوا

فعلاً.. أبطالاً للفتح ولدين الله.. وخرجوا مع رسول الله يطوون الأرض والجبال والوهاد، غير عابئين بمشاق السفر وصعوبة الطريق..

وهكذا تكن الجندية المخلصة للأمة..

٣ ـ حرص الرسول ﷺ وأصحابه على سرية تحرك الجيش الإسلامي، وكان رجال الإسلام ينفذون تعاليم الرسول ﷺ بدقة.. وهذه عائشة رضي الله عنها تخفي عن أبيها الأمر.. حتى يقول له قائد الجيش محمد ﷺ بالخطة وكان الجنود أحرص على حفظ ما يعرفون من أمور التحرك.

ولهذا حينما علم عمر بفعل حاطب بن أبي بلتعة من إفشاء سر التحرك إلى زعماء مكة.. حاول أن يأخذ الإذن من الرسول ﷺ بضرب عنق حاطب..

ولكن الرسول ﷺ منع عمر بن الخطاب من ذلك وعفا عن حاطب.

ويكفي أن التاريخ الإسلامي تجاهل هذا الرجل الذي حاول أن يفشي أسرار التحرك ومحاولة عمر قتل خاطب، وتجاهل التاريخ لذكر حاطب ليدلان على فداحة وجرم من يحاول أن يفشي أسرار معارك المسلمين..

ويدلان أيضاً على أن جنود الأمة يجب أن يكونوا على مستوى تحمل المسؤولية ويكونوا رجالاً، يقدمون مصلحة الأمة على الأهل والمال..

ومما لا شك فيه أن الحفاظ على سرية التحرك كان من عوامل صيانة الدماء واستتباب السلام، وانتصار المسلمين..

٤ ـ التخطيط الدقيق القائم على الوعي واليقظة.. دليل على كبر المهمة، وعلو القدر وبعد النظر..

فقد خرجت الجيوش مقسمة إلى أقسام، وسارت في الجبال غير بعيدة عن بعضها وتملأ الأرض كلها..

وحينما شاهد أبو سفيان هذه الجيوش، وسيوفها تلمع.. هاله الأمر..

ولا تنسى أن إيقاد النار على مساحة من البشر قدرها عشرة آلاف من الجنود، في ظلام الليل الحالك، كان باباً من أبواب وسائل الحرب النفسية. . التي أحبطت عزائم القوم وحيرتهم في أمر هذه النيران التي لم يشهدوا لها مثيلاً من قبل. . ودخول الجيوش الإسلامية مكة من جهات مختلفة، يعطي درساً في التنظيم والدقة. .

وكان القائد ورجاله يدخلون مكة من أعلاها وهم يرون بقية الجيوش الزاحفة. .

إن هذا كله يعطينا أمثلة حية على أن المسلمين أغنياء بفكرهم وثقافتهم وعقيدتهم فليسوا في حاجة إلى استيراد نظم وأفكار أجنبية، لا تتفق مع الفكر المؤمن بالله، والمسترشد بهدى الحق.

ولا شك أن مشاهدة أبو سفيان للجيوش الإسلامية وهي تمر بأسلحتها وألويتها. . لا شك أن هذه كانت ضمن خطة إعلامية خطيرة. . فقد قفل أبو سفيان راجعاً ليعلم القوم: أنه لا طاقة لهم بمقاومة الجيش الزاحف، ولا فائدة من الحرب. .

٥ ـ كان أول شيء يفعله الرسول عليه الصلاة والسلام بعد دخول مكة. . هو تكسير الأصنام وإزالة معالم الوثنية، والجاهلية، وبهذا قضى رسول الله على أهم معاقل الجاهلية والتخريف. . ليعيش المسلم وقد صفا قلبه لله. . ويحيا وقد طهر من رجس الإلحاد. .

وهذا يدفع المسلمين أن يكونوا حراساً للعقيدة الإسلامية التي جاءنا بها القرآن الكريم فلا معبود إلا الله. . ولا يصح للمسلم أن يستعين أو يدعوا أو يركع أو يسجد إلا لله لأن الإسلام يأبى على المسلم أن يخضع أو يعتقد في الجبت والطاغوت. .

٦ ـ الإسلام دين السلام، يسعى إليه، ويعمل من أجله. . واتهام المستشرقين للإسلام بأنه دين انتشر في ظل السيف. . اتهام باطل. . يدل

على التعصب الأعمى والحقد الدفين، والجهل بواقع التاريخ الإسلامي..

وهذا فتح مكة.. يتم في ظل السلام الذي سعى إليه الرسول ﷺ وكان في إمكان الجيوش الإسلامية أن تبيد أهل مكة الذين طالما عذبوا المسلمين وحاولوا القضاء عليهم وهم في المدينة ثلاث مرات..

وهم الذين دفعوا بالمسلمين إلى الهجرة، وترك الديار والأموال. وهم الذين خططوا لقتل الرسول والخلاص منه..

ومع ذلك فلم تحاول الجيوش الإسلامية.. أن تثير أياً من هذا، ولم تفكر قط في الانتقام..

بل دخلت الجيوش الزاحفة وهي أحرص على السلام.. ولما أخذت القوة مأخذها من قائد.. فصاح اليوم يوم الملحمة.. كان هذا القول دافعاً إلى عزله وتنحيته...

وقد أسف الرسول الأمين لما حدث مع خالد من مناوشة بعض الناس له..

إن الإسلام حريص على السلام.. والدليل القاطع على ذلك فتح مكة. فهو فتح من أجل الحق، وفي سبيل العقيدة، فتح يطيح بالأصنام ويحافظ على كرامة الإنسان.. فتح يطهر بيت الله الحرام. ويجعله خالصاً للطائفين والركع والسجود..

وكان أيضاً في إمكان الجيوش الإسلامية أن تدخل الناس قسراً في الإسلام.. ولكن الرسول ﷺ.. لم يجبر أحداً على الدخول في الإسلام.. وإنما جعل ذلك طواعية واختياراً وتوافد الناس على الدخول فيه بعد أن عرفوا أن وعد الله حق، وأن دين الله حق، وأن الله متم نوره ولو كره الكافرون والمشركون..

إن المسلمين كانوا يملكون زمام القوة.. ومع هذا فلم تخرجهم دوافع القوة عن صيانة النفوس، والحفاظ على الدماء من أن تراق.. وأيضاً لم

يندفعوا.. ليبطشوا في عتو وضلال وتجبر.. بل أقبلوا على أهل مكة في تواضع وخشوع لله وحده.. وهم يرددون كلمات الحق، والدعوة إلى الله..

وأصدر رسول الإنسانية قبل دخول مكة بياناً بالأمان. ولم يكن البيان خدعة للناس لاستعمار البلاد وامتصاص خيراتها.. وإنما كان البيان حقيقة أثبتها التاريخ.. وبعد أن تم الفتح أصدر القائد بياناً آخر بالعفو العام.. وكان البيان الأول والثاني.. وثيقتين من أعظم وثائق الحفاظ على الإنسان، ونشر الإسلام في أركان الدنيا، فهل يقول بعد هذا أحد: إن الإسلام انتشر بالسيف.. إن الإسلام دين جاء لإصلاح أحوال الإنسانية حتى لا تطغى وتتقاتل وتضل الطريق.

٧ ـ الشؤون الإدارية جزء من أعمال القيادة العسكرية تختص بإدارة وتحرك الجيوش أثناء المعركة وقبلها وتزويدها بأصناف التموينات الضرورية، كالإعاشة بالأرزاق وما يحتاجه الأفراد من تطبيب ورعاية وما تتطلبه المعركة من سلاح وذخيرة ووسائل نقل.

وفي العصر الحديث أصبحت الشؤون الإدارية مبدأ من مبادىء الحرب الحديثة.. وكثيراً ما يعبر في الدراسات العسكرية عن الحربين العالميتين بحرب الشؤون الإدارية. وقد اختصر نابوليون أهميتها فقال: «إن الجيوش تسير على بطونها».

والشؤون الإدارية في المعركة، وإن كانت حديثة الشكل، جديدة المظهر والتبويب.. إلا أنها أصيلة الجوهر عميقة الجذور في التاريخ.

غير أنها تختلف من عصر إلى عصر كما تتغير وسائلها من أمة إلى أمة أخرى..

وفي غزوات الرسول ﷺ، نجد معظم الشؤون الإدارية متوفرة فيها..

كما نجد المسلمين قد طبقوا الاقتصاد، والمرونة والبساطة التي تعتبر أهم مبادىء الشورى اليوم[1].

(١) مجلة الجندي المسلم ص ١٦ العدد الخامس من السنة الأولى ـ وزارة الدفاع والطيران السعودية.

وفي فتح مكة تأمنت كافة الشؤون الإدارية . .

فمنذ تحرك الجيش الإسلامي وهو يعتمد على غذاء متوافر، فقد كان الجيش يأكل اللحم الطازج حيناً، واللحم المقدد حيناً آخر . . إضافة إلى التمور والسويق . .

وكانت الدواب تعتمد على النوى وما يتبقى من السويق بالإضافة إلى الأعشاب الموجودة في الأرض . .

ووسائل النقل في فتح مكة، كانت متوفرة ومعدة إعداداً يتفق مع قدرة الجيش الزاحف . . فقد كان لدى المسلمين كما جاء في (الكامل لابن الأثير)، ما يقرب من خمسة آلاف بعير، وألف فرس . .

وكان ثلاثة أرباع الجيش راكباً . . . أما المشاة فكانوا يتعقبون الركوب مع إخوانهم .

وقد توفر للمسلمين في فتح مكة السلاح اللازم، فقد أعد لكل جندي سيف ورمح ومجن وجعبة للنبال . . . ومعظم الجنود كان يلبس السابغة والخواذات الحديدية حتى قال أبو سفيان حينما رأى هؤلاء: «سبحان الله من هؤلاء» . .

والواقع أن المسلمين كانوا على أتم استعداد، وأحسن قوة مستطاعة . . لإيمانهم أن القوة أضمن طريق لإحقاق الحق . .

٨ - إن الروح المعنوية أقوى سلاح عرفته الإنسانية في حروبها الطويلة . .

وصفحات التاريخ الإسلامي سجلت قوة الروح المعنوية، للجيوش الإسلامية التي خاضت المعارك في سبيل الله .

وقوة الروح المعنوية عامل من عوامل انتصار المسلمين حتى ولو كان عدوهم يفوقهم عدة وعدداً . .

والمتأمل في تاريخ الحروب كلها . . يجد أن قواد الأمم والجيوش

يضعون قوة الروح المعنوية في المكانة العليا، بين القوى التي يدفعون بها في وجه الأعداء.. وهي ولا شك تختلف من أمة إلى أمة ومن عصر إلى عصر، والذي لا شك فيه أن لها فاعليتها وثقلها..

وقد كانت الجيوش الإسلامية في فتح مكة على روح معنوية رائعة..

تجلت هذه الروح في تحرك المسلمين واستعدادهم، وإيقادهم النيران لإرهاب الأعداء وتثبيط هممهم، وتجلت في التنظيم والألوية والرماح والأسنة التي كانت ترفرف وتلمع فوق الرؤوس..

وتجلت في دخول مكة من جهاتها المختلفة..

إن الإهتمام بالروح المعنوية يقوم أساساً على حب الإستشهاد في سبيل الله ونكران الذات، والتضحية. وأن تتوفر للجيوش الإسلامية الروح المعنوية القائمة على أساس أن الإقدام لا ينقص عمراً والإحجام لا يطيل أجلاً.. يومها سوف ينتصر المسلمون.

والحمد لله قرآننا مليء بشحنات الروح المعنوية.. قال تعالى: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾.

يقول ابن القيم: «فجعل سبحانه ها هنا الجنة ثمناً لنفوس المؤمنين وأموالهم بحيث إذا بذلوها فيها استحقوا الثمن وعقد معهم هذا العقد، وأكد هذا بأنواع من التأكيد..

أحدهما: إخبارهم بصيغة الخبر المؤكد بأداة (ان).

الثاني: الإخبار بذلك بصيغة الماضي الذي قد وقع وثبت واستقر.

الثالث: إضافة هذا العقد إلى نفسه سبحانه وأنه هو الذي اشترى هذا البيع.

الرابع: أنه أخبر بأنه وعد بتسليم هذا الثمن وعداً لا يخلفه ولا يتركه.

الخامس: أنه أتى بصيغة «على» التي للوجوب. إعلاماً لعباده. بأن ذلك حق عليه أحقه على نفسه.

السادس: أنه أكد ذلك بكونه حقاً عليه. .

السابع: أنه أخبر عن محل هذا الوعد، وأنه في أفضل كتبه المنزلة من السماء وهي التوراة والإنجيل والقرآن.

الثامن: إعلامه لعباده بصيغة استفهام الإنكار، وأنه لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه.

التاسع: أنه سبحانه وتعالى أمرهم أن يستبشروا بهذا العقد، ويبشر به بعضهم بعضاً.

العاشر: أنه أخبرهم إخباراً مؤكداً بأن ذلك البيع الذي بايعوه. هو الفوز العظيم.

فالله سبحانه وتعالى بهذه الآية وما جرى مجراها في القرآن الكريم، يستثير الهمم لإعلاء كلمة الله، ولحماية الضعفاء، وتخليص المظلومين. .

وفي الآية تشجيع على خوض المعامع، ومقابلة الموت بصدر رحب وقلب ثابت. ولا يوجد ما يثبت الإنسان كالعقيدة. . إنها النور الذي يضيء الطريق. . والقوة التي تحمي المسلم من الضعف أو الإدبار. .

ولهذا يعبر أحد المسلمين فيقول:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً   على أي جنب كان في الله مصرعي

٩ ـ وعد الله عباده المؤمنين بالنصر فقال تعالى: ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ».

من هذا النبع الصافي انطلق المسلمون في ظل العقيدة الإسلامية. . يصنعون الأعاجيب في دنيا الإنسانية، ويحققون الانتصارات الرائعة، ويفتحون القلوب بنور التوحيد وينشرون في أركان الدنيا العدل، ويحقون الحق، ويسحقون الباطل والطغيان، ويقيمون أمة القرآن، لتكون خير أمة

أخرجت للناس.. إن المسلمين العاملين في الحقل الإسلامي.. موصولون السبب بالله، يستمدون منه القوة.

إنهم جنود الله وجند الله هم الغالبون.

إنهم حزب الله وحزب الله هم المفلحون..

لقد كان هؤلاء يدخلون غمار الحروب لا يلوون على شيء.. وقول الله تبارك وتعالى واقع في قلوبهم ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾.

فالجنود في الإسلام كاسبون.. إما موت وشهادة، وإما نصر وعزة، وفي كلا الحالتين أجر عظيم، وثواب كبير..

١٠ - إن الرسول الأمين صلوات الله وسلامه عليه قد استعمل في الغزوات، أسلوباً علمياً يعد من أعظم الأساليب في الحروب.

ومن هذا التصميم على الغرض فالرسول وضع نصب عينيه فتح مكة ولم يتحول عنها وقد قرر أن يدخل مكة، فلما جاء إليه أبو سفيان... يطلب مد مدة الصلح الذي بينه وبين قريش.. رأى الرسول ﷺ.. أن في ذلك المد تعطيل للغرض.. ولهذا لم يوافق أبا سفيان فيما دعا إليه..

ومن هذا.. قرر أن يدخل مكة دون قتال أو إراقة دماء.. ولم يقبل أن يكون يوم الفتح يوم الملحمة. وحينما شاهد خالداً وهو يحارب في الجبهة الجنوبية غضب ودعاه إلى إيقاف الحرب. وقال حين علم بتفاصيل ما حدث «إن الخيرة فيما اختاره الله».

ومن هذا أيضاً.. أن الرسول عليه الصلاة والسلام. كان يسعى إلى نشر الإسلام والقضاء على الوثنية والأصنام، ولهذا حطم الأصنام في الكعبة.. ثم أمر بهدم كل صنم في داخل البيوت.. وبعث السرايا لهدم الأصنام خارج مكة.

معركة تبوك

إن الباحث في المعارك الإسلامية التي خاضها المسلمون من أجل دعوة الحق، والمبادىء التي جاء بها القرآن الكريم، يرى أضواء مشرقة.. تكشف اللثام عن حقيقة الإسلام، وتبين معدن المؤمنين بالإسلام.. وقوتهم في الحق..

وغزوة تبوك من الغزوات التي تكشف عن الإيمان العميق الذي ملأ النفوس.. مما كان حافزاً على الحرص على دخول المعركة، والتسابق على عمل الخير..

وهذا الإيمان نفسه هو الذي جعل بعضاً من المسلمين يردهم الرسول عن المعركة لعدم توفر الإمكانيات الكافية..

قال تعالى مسجلاً هذه اللفتة الفياضة: «تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون»[1]، وتبوك (بفتح التاء وضم الباي)، اسم لعين في مكان معروف وبه حصن ونخل في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق. قال الحافظ: بينه وبين المدينة من جهة الشام أربع عشرة مرحلة، وبينه وبين دمشق إحدى عشرة مرحلة.. وهو نصف طريق المدينة إلى دمشق..[2]، وسميت بغزوة العسرة لأنها كانت في حر شديد وعسرة..

---

(١) سورة التوبة.

(٢) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية جـ ٣ ص ٦٤.

ومن الأسباب التي دفعت إليها. أنه بينما كان الرسول الأمين.. يعد الأمة الإسلامية لتؤدي رسالتها ويكوّن خير أمة أخرجت للناس.. ويطهر الأجواء من أثار الشر.. ويمحو من النفوس معالم الشرك والوثنية.. بينما هو يفعل ذلك ليدعم بنيان الحق.. كان الروم في شمال الجزيرة العربية.. ينظرون إلى هذا العمل نظر التوجس ذلك أن الروم كانت لهم مصالح شتى بالجزيرة العربية، وكانت لهم تجارة تمر في طرق الجزيرة بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب.

وكان لهم أتباع من العرب، في شمال الجزيرة، يأتمرون بأمرهم ويخضعون لسلطانهم. وكان لهم في قلب الجزيرة.. أنصار يعتمدون عليهم في حماية تجارتهم.. هذه الأمور الأربعة.. يحرص الروم على بقائها حرصاً على مصالحهم..

ومما يجعل هذه المصالح خالصة للروم.. أن العرب كانوا بطبيعة الحال قبائل متفرقة.. تتقاتل وتتضارب وتتطاحن.. ولا أكثر من هذا.. وكل قبيلة يهمها أمرها أو أمر حلفائها..

وكان من الأصلح للروم أن يستمر هذا التفرق بين العرب لأسباب كثيرة.. منها:

أولاً: أن يستمر سلطان الروم مبسوطاً على أتباعهم من العرب.

ثانياً: أن يستمر جانب غير أتباعهم من العرب مأموناً على مصالحها، في نواحي الجزيرة.

ثالثاً: ولكي لا يستطيع العرب أن يقفوا أمام الروم صفاً واحداً، في ذات يوم.. فيكلف الروم الكثير.. فلما ظهر الإسلام.. وأخذ يوحد كلمة العرب في ظل لواء الإسلام.. أخذ الروم يتنبهون لخطر هذا الحادث ولعل أول ما نبههم إليه تلك الدعوة الجريئة التي وجهها الرسول ﷺ، إلى قيصر الروم، يدعوه فيها إلى الإيمان بالله وحده، وإلى اتباعه فيما يدعو إليه، وإلى

دعوة كل من وراءه من الروم وغيرهم إلى الدخول في الإسلام، ويحمله فيها تبعة التقصير في الإذعان لهذه الدعوة..

كانت دولة الروم إذاً على علم بدعوة الإسلام، وكانت تقدر مالها من خطورة الشأن.. وتعلم أن هذه الدعوة ستمس مصالحها مساساً كبيراً.. وأنه ينبغي لها ألا تغفل أمرها أو تستنيم إلى جوارها..

ولعل واقعة مؤتة.. كانت أول عمل قام به الروم لدرء هذا الخطر عن دولتهم، ولإخماد هذه الدعوة التي ظنوها شرارة لا تلبث أن تنطفيء فلما رأوا أنصارها ليسوا من الهوان كما تصوروا أخذوا ينظرون إليها نظرة الجد والاهتمام..

ولما فتح الله مكة على رسوله، وأخذت دعوة الإسلام تنتشر فياضة في نواحي الجزيرة أيقن الروم أن الخطر يوشك أن يواقعهم، وأنه لا بد من عمل سريع لدرء هذا الخطر، قبل أن يستفحل أمره..

وكانت دولة الروم.. لا تزال في عنفوانها وقوتها.. ولم يكن قد مضى على انتصارها على دولة الفرس غير بضع سنين.. وكان لديها من القوة والعتاد.. ما تظن أنها قادرة على تحطيم أمة الإسلام، وهي لا تزال وليدة في المهد...

ومن أجل ذلك أعد الروم عدتهم للقضاء على هذه الأمة الناشئة قبل أن يشتد أمرها، ويتفاقم خطرها.. ولعلهم أرادوا أن يهاجموها في عقر دارها، ليقطعوا دابرها.. فجمعوا ما شاؤا من الجموع، وأعدوا ما شاؤا من العتاد.. وأخذوا أهبتهم لقطع تلك الفيافي البعيدة، والصحاري الواسعة[1].

وبلغ الرسول ﷺ من الأنباط، الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة.. أن الروم تجمعت بالشام مع هرقل[2].. وأن هرقل رزق أصحابه

---

(١) صورة من حياة الرسول لأمين دويدار ص ٥٥٩.

(٢) هرقل: بكسر الهاء وفتح الراء، وسكون القاف: علم على قيصر.

لسنة وأجلبت معهم لخم، وجذام، وعاملة، وغسان، وغيرهم[1]. . فكان لا بد أن يفكر الرسول ﷺ في دفع هذا العدوان عن أمته. . وكان أمامه كما يقول المؤرخ «بودلي» طريقتان لمقابلة هذا التحدي. .

أولاهما: أن يدع الروم يتغلغلون في صحراء بلاده، ثم يقابلهم حين يحلو له. .

والثانية: أن يهجم عليهم بنفسه. . وكانت الأولى هي الأيسر، والأسهل، ولكنها قد تؤدي إلى فقدانه بعض القبائل التي حالفها حديثاً، فاختار الطريقة الثانية[2].

والرسول عليه الصلاة والسلام. . لم يتردد هنيهة في تقرير مواجهة هذه القوى بنفسه، والقضاء عليها قضاء يقضي في نفوس الأعداء على كل أمل في غزو العرب. . أو في التعرض لهم. . وإظهار قوة المسلمين واستعدادهم للدفاع عن كل شبر من أرضهم[3].

وهذا العمل من الرسول ﷺ يشهد له بحسن السياسة الإسلامية. . وأنه ينظر إلى الأمور بنظر ثاقب بصير. . ضارباً للأمة الإسلامية أمثلة حية، لتكون لهم دروساً نافعة في الحياة. . عبر تطور الزمن، والمسيرة الإنسانية. .

وأخبر محمد ﷺ. . . أصحابه بعزمه على السير إلى بلاد الروم وقتالهم. . حتى يأخذ المسلمون لذلك عدتهم. .

وكان لا مفر من أن يخالف الرسول ﷺ بذلك تقاليده في سابق غزواته، حين كان يتوجه في كثير من الأحيان بجيشه. . أو تحركه إلى غير الناحية التي إليها يقصد، تضليلاً للعدو. . . وحتى لا يفشوا خبر الهدف الذي يقصده. .

---

(1) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية جـ ٣ ص ٦٣.
(2) صورة من حياة الرسول ص ٥٥٩.
(3) الدين والحياة جزء رقم ٧٨، وزارة الأوقاف ص ٧.

إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس..

أولاً: لبعد الشقة..

ثانياً: سوء الحالة الاقتصادية..

ثالثاً: كثرة العدو الذي يتأهب له..

فأمر الناس بالجهاد.. وأخبر أنه يريد الروم، وبعث إلى القبائل، وإلى مكة يستنفرهم إلى عدوهم[1]..

ولقد كان أمر رسول الله ﷺ، للمسلمين بالتهيؤ لغزو الروم في زمن عسرة من الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار[2].

أفيدفعهم إيمانهم وحبهم للرسول ﷺ، وشديد تعلقهم بدين الله إلى الإقبال على دعوته متدافعين بالمناكب، حتى يضيق بهم فضاء الصحراء، دافعين أمامهم، أموالهم، وإبلهم، مدرعين بسلاحهم، مثيرين أمامهم من النقع.. ما أن يكاد يبلغ العدو نوءه حتى يولى الإدبار لا يلوي على شيء؟ أم تمسكهم مشقة الطريق، وشدة الحر، ومخافة الجوع، والعطش.. فيتقاعسون، ويتراجعون؟ لقد كان في المسلمين يومئذ من هؤلاء وأولئك[3].. وأقبل المؤمنون يلبون دعوة رسول الله ﷺ ضفافاً مسرعين.. يتنافسون في تجهيز الجيش.. وأول من حمل صدقته أبو بكر رضي الله عنه.. جاء بماله كله أربعة آلاف درهم..

فقال رسول الله ﷺ: هل أبقيت شيئاً؟

قال الله ورسوله..

وجاء عمر رضي الله عنه.. بنصف ماله..

---

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ٩٤٣، وامتاع الأسماع: ص ٤٤٦، وحياة محمد لهيكل ص ٤٥٥.

(٢) سيرة ابن كثير.. لابن كثير جـ ٤ ص ٤.

(٣) حياة محمد لهيكل ص ٤٥٥.

فقال له رسول الله ﷺ.. هل أبقيت شيئاً؟

قال: نعم.. نصف مالي ما جئت به..

وبلغ عمر رضي الله عنه.. ما جاء به أبو بكر رضي الله عنه فقال: ما استبقنا إلى خير إلا سبقني إليه..

وحمل العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، ما لا يقال: أنه تسعون ألفاً..

وحمل طلحة بن عبيد مالاً..

وحمل عبد الرحمن بن عوف مائتي أوقية..

وحمل سعد بن عبادة مالاً..

وتصدق عاصم بن عدي بتسعين وسقاً من تمر..

وجهز عثمان بن عفان رضي الله عنه.. ثلث ذلك الجيش. فكان من أكثرهم نفقة. حتى كفى ثلث ذلك الجيش مؤونتهم.. حتى أن كان ليقال: ما بقيت له حاجة.. فجاء بألف دينار، ففرغها في حجر النبي ﷺ.. فجعل يقلبها، ويقول ﷺ: ما ضر عثمان ما فعل بعد هذا اليوم.. قالها مراراً..

ورغب عليه السلام أهل الغنى في الخير والمعروف..

فتبادر الناس في ذلك.. حتى أن الرجل ليأتي بالبعير إلى الرجل والرجلين.. فيقول: هذا البعير بينكما تتعقبانه..

ويأتي الرجل بالنفقة، فيعطيها بعض من يخرج وأتت النساء بكل ما قدرن عليه، فكن يلقين في ثوب مبسوط بين يدي النبي ﷺ، المسك والمعاضد[1]، والخلاخل، والأقرطة، والخواتيم[2].

وأنت ترى من هذا.. نبضات الإيمان القوية التي تحركت بالمسلمين

(١) المعضد: شيء تجعله المرأة على عضدها كالسوار.

(٢) امتاع الأسماع ص ٤٤٦.

إلى التسابق بأموالهم وما يملكون في سبيل العقيدة التي امتلأت بها قلوبهم، واطمأنت إليها نفوسهم.

أعد المسلمون عدتهم للخروج، وتتابع الناس يتوافدون على المدينة من كل صوب.. حتى زاد عددهم على ثلاثين ألفاً.

وخرج رسول الله ﷺ من المدينة وضرب عسكره على ثنية الوداع. وكان خروجه يوم الخميس. وكان يحب أن يخرج يوم الخميس لجهاد أو غيره.

وعقد الألوية والرايات:
لواء الجيش.. يتولاه أبو بكر..
لواء المهاجرين. يتولاه الزبير بن العوام.
لواء الأوس.. يتولاه أسيد بن حضير.
لواء الخزرج.. يتولاه، الحباب بن المنذر.
لواء الفرسان.. يتولاه، خالد بن الوليد.
وأمر كل بطن من الأنصار وقبائل العرب أن يتخذوا لواء، أو راية..

وخرج في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة، الموافق سبتمبر واكتوبر سنة ٦٣٠ م.. قاصداً إلى ناحية الشام في ثلاثين ألفاً من الناس والخيل فيها عشرة آلاف فرس[١]..

وأمر القائد الأعلى محمد ﷺ بالتحرك، فتحرك الجيش، وثار النقع وصهلت الخيل.. ونساء المدينة يصعدن أسقف البيوت.. ليشهدن هذا الجحفل الجرار يتوجه مخترقاً الصحراء، صوب الشمال، مستهيناً في سبيل الله بالحر والظمأ والمسغبة.. ولم يكن الطريق سهلاً، ولا السفر قريباً، ولا الوقت ملائماً للسير..

---

(١) كتاب امتاع الأسماع ص ٤٥.

ولكنه الجهاد لدفع عدو مهاجم، ودرء خطر جاثم، على الأبواب..

فما كان المؤمنون، وهم أهل الدعوة، وحملة الرسالة، ليكفوا عن الجهاد، مهما تكن الأسباب ومهما تكن الظروف..

قال تعالى: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾[1].

وقد قاسى رسول الله ﷺ وأصحابه في هذهّ السفرة، مشقة بالغة، وعنتاً كثيراً.. فقد اجتمع فيها إلى بعد المشقة، وشدة الحر، جهد الحال، وشح المؤونة وقلة الركائب.. حتى سماها الله تعالى: ﴿ساعة العسرة﴾..

ولقد كانت هذه المشقة التي عاناها المسلمون في السير إلى تبوك.. إمتحاناً من الله لهم.. أراد به تمحيص المؤمنين واستخلاصهم، وإعدادهم لاحتمال مشاق الجهاد في سبيله.. فكان لا يحتمل هذه الشدة إلا الذين صدق إيمانهم، ورسخت عقيدتهم..

أما الذين نافقوا وتظاهروا بالإيمان.. فقد تضعضعوا، وخارت عزائمهم، فكانوا يتسللون من وراء الصفوف راجعين[2].

وسار الجيش الإسلامي حتى بلغ الحجر[3]، وبها أطلال منازل ثمود منقورة في الصخر.. فاستسقى الناس من الأبار التي كانت تشرب منها

---

(١) سورة التوبة الأيتان ١٢٠، ١٢١.

(٢) صور من حياة الرسول ص ٥٦١، بتعرف.

(٣) واد بين المدينة والشام.

ثمود.. ونزلوا على البئر التي كانت تشرب منها الناقة.. ونهاهم الرسول أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا كما قال لهم: «لا تسألوا الأيات»[1]، والنهي عن سؤال الآيات.. عود بالناس إلى الأحوال المألوفة إذ لا جدوى في الخروج عليها.. وخير للسائلين أن يبذلوا طاقتهم في أداء ما يكلفون به وأن يرفقوا قلوبهم حتى تلين لأمر الله[2].

وحين وصل رسول الله ﷺ إلى تبوك، وصار على حدود دولة الروم.. لم يجد أحداً من العدو.. ومن المحتمل أن يكون الروم آثروا الإنسحاب إلى داخل بلاد الشام ليتحصنوا بحصونها حين وصل إليهم خبر الجيش الإسلامي وقوته[3].

ومن المحتمل أيضاً.. أن يكون المسلمون قد عدلوا عن مواصلة الزحف، حينما علموا خلافاً لما كانوا يظنون ـ أن هرقل لم يجهز جيشاً لغزو المدينة..

وأياً كان واقع الأمر.. فقد شاور رسول الله أصحابه في التقدم لملاقاة العدو.

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه.. إن كنت أمرت بالمسير فسر..
فقال رسول الله ﷺ: «لو أمرت به ما استشرتكم فيه»..

قالوا: يا رسول الله: إن للروم جموعاً كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام وقد دنوت منهم حيث ترى.. وقد أفزعهم دنوك.. فلو رجعت هذه السنة حتى ترى، أو يحدث الله لك في ذلك أمراً[4].

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير جـ ٤ ص ١٨، ١٩.
(٢) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص ٤٤٢.
(٣) حياة محمد. لهيكل.
(٤) إمتاع الأسماع ص ٤٦٣.

وأقام ﷺ على حدود تبوك، يبعث السرايا إلى من حول تبوك من نصارى العرب، التابعين لدولة الروم.. ويعمل على تأمين الحدود.. حتى لا يتخطى من بعد ذلك إليها أحد..

وكان عليه الصلاة والسلام.. يتفقد الجيش مدة إقامته بتبوك.. فيطوف في أصحابه.. وينظر في شؤونهم.. وقد أقام على الجيش حراساً منهم.. يهتمون بالحراسة إذا نام الجند..

وأقام ﷺ بتبوك عشرين ليلة وقيل بضع عشرة ليلة[1].

وتمكن عليه الصلاة والسلام من تأمين حدود الدولة الإسلامية وعقد المصالحات مع النصارى العرب المجاورين للروم. وبعد أن أمن حدود الدولة من ناحية الشمال.. رجع إلى المدينة في رمضان من السنة التاسعة للهجرة.. الموافق ديسمبر سنة ٦٣٠ م..

وأنت ترى لو أن غرض الرسول ﷺ.. كان فرض الإسلام بالسيف. كما يُزعم في مناسبة وغير مناسبة. فهل كان في الإمكان أن تكون ثمة فرصة لذلك خير من هذه الفرصة؟

لقد كان ثمة تحت إمرة الرسول ثلاثون ألف مقاتل مسلحون تسليحاً حسناً..

ثلاثون ألف مقاتل.. أولو قوة وأولو بأس شديد.

ولكن التاريخ لم يسجل أن أي رجل اعتنق الإسلام نتيجة لهذه الحملة الضخمة..

وحتى لو أن الرغبة في التوسع الإقليمي، كانت مستحوزة على الرسول.. فهل كان في الإمكان أن تتاح له فرصة مؤاتية لذلك أكثر من هذه الفرصة؟..

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي ص ٤٧٠ - ٤٧٣.

لقد تحمل مشاق الرحلة الطويلة المرهقة، في قيظ الصيف العربي المحرق..

وكان قد انتهى أخيراً إلى أبواب بلاد العدو نفسها.. ذلك العدو الذي ألفاه الرسول غير مستعد لإبداء أيما مقاومة.. إن اندفاعة واحدة إلى الأمام نحو سورية المنبسطة أمامه.. كان خليقاً بها أن تملكه رقعة من الأرض الخصبة واسعة.. ولكن فؤاده كان بريئاً من الرغبة في التوسع الإقليمي براءته من إدخال الناس في الدين عنوة..

فعلى الرغم من كل ذلك.. الإنفاق، وتلك المشاق، لم يكد الرسول يقنع بعد تريث دام عشرين يوماً، بأنه لم يكن ثمة داع للقلق، حتى انقلب عائداً للوصية القرآنية التي تقول: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾[1]، لقد أبى العدو القتال، فكيف يقاتله الرسول[2]؟.

فرسالة الإسلام.. تعمل من أجل صيانة السلام، وحفظ الأمن..

ولم يقع في غزوة تبوك قتال.. ولم يلق المسلمون فيها عـدوهم..

ولقد كان بلاء المسلمين في أول الأمر شديداً.. ثم كانت نهايتها طمأنينة وعزة.

إلا أن ما نزل فيها من القرآن الكريم من سورة التوبة كان أطول ما نزل في قتال المسلمين خصومهـم.. فلقد حمل القرآن الكريم، على الذين تخلفوا في هذه الغزوة حملة شديدة وقسا عليهم قسوة بالغة.. فلامهم، ووبخهم، وقرعهم، أشد التقريع، وكشف النقاب عن المنافقين والمترددين، وطلاب الدعة، والراحة، الذين آثروا ظل القعود في بيوتهم وحقولهم على حر الصحراء، ووعثاء السفر، ومتاعب الجلاد..

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٩٠.

(٢) حياة محمد. مولانا محمد علي ص ٢٢٥، طبع بيووب.

قال تعالى: ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقالوا لا تنفروا في الحر، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون. فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فأستأذنوك للخروك فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة، فاقعدوا مع الخالفين. ولا تصل على أحد منهم مات أبداً، ولا تقم على قبره، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون، ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا، وتزهق أنفسهم وهم كافرون. وإذا أنزلت سورة إن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾[1].

كما وصف المنافقين بالخسة، والدناءة، وأنهم لا ينشطون إلا للمنافع العاجلة والأعراض الزائلة.. أما جلائل الأمور وعظائمها، فهم ليسوا أهلاً لها ولا طلاباً..

قال تعالى: ﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾[2].

وعيرهم بالجبن، والخور، والعجز والخمول، والكسل، وأنهم ليسوا من أولي النجدة عند الخطر والشدة. ينفرون من الجد، ويؤثرون الراحة الرخيصة، على الكدح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز.

---

(١) سورة التوبة الآيات ٨١ ـ ٨٧.

(٢) سورة التوبة آية ٤٢.

قال تعالى: ﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون. لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون ﴾[1].

ولهذا كله أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بتطهير الصفوف من هؤلاء المنافقين وأن يكون المسلمون على يقظة تامة.

قال تعالى: ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين. لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم، والله عليم بالظالمين. لقد ابتغوا الفتنة من قبل، وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق، وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾[2].

وهكذا جاءت آيات القرآن الكريم.. تفضح أساليب المنافقين وطلاب المنفعة.. وتبين أن هؤلاء أخطر ما يكون في الجبهة الداخلية.

ولهذا كان واجباً على أفراد المجتمعات الإسلامية. كشف أمرهم، ومراقبتهم، والقضاء عليهم.. لأنهم مراكز عفنة.. خربت قلوبهم، وساءت نفوسهم. فضلوا.. ويريدون في كل عصر ومصر أن يوهنوا العزائم، ويفرقوا أبناء الوطن الواحد..

وكان جدير بالمسلمين.. التنبه لهذه الأمراض ومتابعتها، والإعراض عن سمومها وأفكارها..

وإن غزوة تبوك بما فيها من دروس مستفادة تعتبر هدياً لمن أراد أن ينظر إلى حقيقة المعارك الإسلامية..

وقد أعطت لنا نماذج من الفدائية المخلصة لله، والمجاهدة في سبيل الحق. وبرهنت على أن المسلمين أولوا قوة وجرأة.. لا يخشون في الحق لومة لائم.

---

(١) سورة التوبة الآيتان ٥٦، ٥٧.

(٢) سورة التوبة الآيات ٤٦، ٤٧، ٤٨.

معركة حطين

أصبح من المؤكد، أن الحروب التي شنتها الصليبية، ضد العالم الإسلامي، منذ قرون، لم تنته بعد.

فالصليبية خطر قديم جديد، يتهدد الإسلام ديناً وأمة، ويخطط لفنائه.. وقد اتخذ أقنعة جديدة متعاوناً مع الشيوعية الإلحادية تارة، والصهيونية العنصرية تارة أخرى، في خطة مرسومة، بشمول واتساع، متبعاً الأساليب المتنوعة، ليصل إلى هدفه الشيطاني الخبيث، لتدمير الإسلام، وتخريب المعتقدات الإسلامية.

ولقد أصبح هذا الهدف واضحاً بجلاء... بل لعله من فرط وضوحه أصبح شيئاً عادياً، نكاد لا نلمسه إلا هوناً، فقد أصبح قوتنا اليومي بل أصبح شيئاً أشبه بعملية التنفس، تتم في حركة رتيبة، فلا يشعر بها الإنسان، وأصبحت مخططات الصليبية تتم في حركة وئيدة، ولكنها أكيدة، مصرة إلى غايتها الرهيبة.

ولقد أصبحت محاولات التخريب هذه من الكثرة والعدد بحيث يضيق المجال عن سردها.. وحتى لو سردت[1]، فكيف يكون رد الفعل الإسلامي؟.

هذا هو الأهم.

---

(١) الكلام للأستاذ صلاح الدين صميدة المدرس بكلية اللغة العربية بالرياض من مقالة، بمجلة (كلية اللغة)، العدد ٣ ص ٢٩.

كيف نرد على هذه المحاولات رداً رادعاً يستأصل شأفتها من أساسها ويضع حداً لها؟.

سؤال مهم... والجواب عنه أهم...

لأنه عمل لا ينتظم جهود فرد، أو جماعة، أو دولة، بل لا بد من جهد شامل ينتظم العالم الإسلامي بأسره.. وهذا أمر لا شك يتطلب ثمناً باهظاً، أقله التجرد ونكران الذات، واجتماع الكلمة.. فالعدو خطر، ومخططاته خبيثة لا تستهدف حكومة أو دولة بعينها، بل تستهدف ديناً أراده الله للعالمين، وأمة هي حصن هذا الدين ومهده.. وقد يظن البعض أن صفة (الصليبية) تعني شيئاً ما متعلقاً (بالصليب) وبالتالي فهي متعلقة بدين، يرمز الصليب له.

وأن الجماعات البربرية التي هاجمت العالم الإسلامي، في العصور الوسطى والتي سمت نفسها بالصليبية إنما هاجمته دفاعاً عن الصليب.

والحقيقة الثابتة تاريخاً، هي أن هذه الجماعات كانت تستهدف شيئاً آخر، غير الدفاع عن المسيحية.. هذا الشيء هو الإستيلاء على أرض الإسلام، مركز الثقل الاقتصادي، والحضاري في ذلك الوقت. ومحاولة ضغط الإسلام في نطاق لا يتعداه وكسر موجته الزاحفة الواعدة المتوعدة، إذ أن حجة حماية الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس، وحماية الأراضي المقدسة، إنما هي مجرد تبرير لا أكثر.

فلماذا تلك النزعات الاستعمارية المتطالبة والتي تعدت نطاق الأراضي المقدسة إلى كثير من أراضي العالم الإسلامي شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً؟.

ثم لماذا الهجوم من أساسه، وموقف الإسلام من أهل الذمة معروف.

ولا تعرف هذه الأرض ديناً متسامحاً مع بقية الأديان مثل الإسلام.

إذن فدعوى الصليبية في العصور الوسطى، دعوى حاقدة موتورة، قائمة على أساس استعماري، بحيث يستهدف تخريب العقيدة، واستنزاف

الاقتصاد. أي قتل الروح أولاً... ثم سرقة الجسد فيما بعد... والصليبية استهدفت أرض الإسلام حاسدة حاقدة تتمنى زوال دين هو أهم الأحداث فوق هذا الكوكب. وزوال حضارة، هي نتاج أمة اعتنقت هذا الدين.

وزوال أمة، هي مهد الدين وحصنه وصانعة الحضارة بلا جدال وبلا تحيز.

وقد جاءت الصليبيات في تخطيط محكم، لا كدفعات تتخللها فترات هدوء... ولكن كتيار كهربائي متصل، يقوم حيناً في أخذ شكل الغزو المسلح السافر من الخارج أياً كانت ذريعته، وما أكثر ذرائعه وأغربها.

في الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥ م.. خطب (أوربان الثاني) في المجتمع الديني خطبته التاريخية، التي دعا فيها إلى شن حرب صليبية ضد المسلمين مدعياً بأن الأتراك كانوا يتقدمون في قلب الأراضي المسيحية، مسيئين للأهالي وأشار إلى أهمية قدسية بيت المقدس، ووصف الصعوبات التي يلقاها الحجاج في الشرق وبالغ في ذلك، وحض الناس على تقديم المساعدة، ووعد بالغفران التام لمن مات في هذه الحرب... وأشار إلى كيف أن الحياة في الغرب بائسة وشريرة، وأن الناس هناك يدفعون بأنفسهم إلى مواطن التهلكة جثمانياً وروحياً، في حين أنهم بالذهاب إلى الشرق سوف يحصلون على السعادة والرخاء[١]...

واستجاب الحاضرون لهذا الكلام.. وانتشر المتطوعون من الرهبان في الأنحاء يبثون الدعوة. وقد أثمرت تلك الدعاية ثمرتها، فحمل الصليبيون على الشرق العربي ثماني حملات بين عام ١٠٩٦ - ١٢٩١م - ويبدأ الحقد الصليبي يأخذ مظهراً عسكرياً سافراً، حاقداً على أمة وصلت إلى أرقى المستويات الحضارية والاقتصادية إلى جانب أرقى المستويات الفكرية والثقافية.

(١) الدولة العربية الكبرى ص ١٩٨، ومملكة بيت المقدس ص ٣٠.

والحملات الصليبية العسكرية استهدفت أمة الإسلام ودين المسلمين بكل ما تحمله كلمة الإسلام وكلمة المسلمين.

ودين الإسلام وأمة الإسلام.. كيان واحد.. لا يعرف الانفصال لأن الإسلام دين ودولة، ومحراب وجهاد، وعبادة وسيادة، ومصحف وقوة.

وهناك شبه إجماع من المؤرخين على أن الحروب الصليبية، لم تكن إسماً على مسمى، وإن كان الدين شعارها المعلن. بل كانت حرباً استعمارية يغلفها قناع الصليب، ولست أرى سبباً دينياً وجيهاً، يدفع بقراصنة الغرب الأوربي في جماعات بربرية تستهدف السلب والنهب وحدهما.

أما دعوى الدفاع عن المسيحيين في الأراضي المقدسة، وحماية الحجاج من اضطهاد السلجوقية الحاكمة حينذاك.. فهو بإجماع الآراء حجة ملفقة ومنطق تبرير لا أكثر، وموقف الإسلام من أهل الذمة يعرفه الأعداء جيداً..

وقد خرجت الصليبية من أغلب دول أوربا وجنوبها ووسطها.

وإذا افترضنا أن لها هدفاً دينياً.. هو الأراضي المقدسة.. فإن الهدف الاستراتيجي اتسع ليشمل إلى جانب الشام كله... العراق ومصر[١]، ولما وصل الصليبيون الشام فتحوا (معرة النعمان) وقتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع والمختبئين في السراديب... وأهلكوا صبراً[٢]... ما يزيد على مائة ألف مسلم، وفتح الصليبيون القدس بعد أن أفحشوا القتل في المسلمين حتى قتل منهم عشرات الألوف فيهم جماعة من الأئمة والعلماء ورجال الفكر.

قال ميشو صاحب تاريخ الحروب الصليبية: تعصب الصليبيون في القدس أبشع أنواع التعصب الأعمى، الذي لم يسبق له نظير، حتى شكا من

---

(١) انظر مقال الأستاذ صلاح صميدة مجلة كلية اللغة، جـ٣ ص ٢٣٧، الرياض.

(٢) صبراً: كل من قتل في غير معركة.

ذلك المنصفون من مؤرخيهم... فكانوا يكرهون المسلمين على إلقاء أنفسهم من أعالي البروج والبيوت ويجعلونهم طعاماً للنار، ويخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض، ويجرونهم في الساحات ويقتلونهم، ودام الذبح في المسلمين أسبوعاً، حتى قتلوا منهم على ما اتفق على روايته مؤرخوا الشرق والغرب سبعين ألفاً.

وكان من عادة الصليبيين أن يقتلوا أهل كل بلد يدخلونه في الشام، ويخربوا عمرانه، ويحرقوا كتبه، ومتاعه، وآثاره[1].

ولم يقف الأمر بالصليبيين عند هذا الحد من بلاد الشام.. بل وصل الأمر بقائد منهم اسمه (أرناط) على مهاجمة الأراضي المقدسة الإسلامية بالحجاز.

فأرسل أسطولاً إلى (عيذاب) لقطع التجارة الإسلامية.

ومن عيذاب توجه الأسطول إلى ساحل الحجاز.

وبلاد الشام أنئذ مكبلة بالحكم الصليبي. فلم تستطع حراكاً. عند ذلك أسرع العادل أبو بكر بأمر أخيه صلاح الدين.. بإرسال أسطول مصري قوي، مجهز بكل الوسائل الممكنة.. بقيادة الأمير حسام الدين لؤلؤ.. المعروف باسم الحاجب وهو قائد القوة البحرية في مصر الإسلامية.

وصل الأسطول المصري إلى (إيلة) قلعة المسلمين، واستولى على السفن الصليبية فيها وأحرقها وأسر من فيها ثم تعقب أسطول الصليبيين إلى (عيذاب) من ساحل الحجاز وأدرك الصليبيين عند ساحل الجوزاء شمال (رابغ) وكان ذلك في شهر ذي الحجة الحرام سنة ٥٧٨ هـ.

وعلم أن الصليبيين كانوا يعتزمون الدخول إلى مكة والمدينة وأسر

---

(١) الإسلام والحضارة العربية للأستاذ محمد كرد علي جـ ١ ص ٢٩٦.

الحجاج، والحيلولة دون تأديتهم فريضة الحج. . . ثم التوجه بعد ذلك إلى اليمن.

صعد الأمير لؤلؤ إلى الساحل، وتعقب الصليبيين الذين لجأوا إلى بعض الشعاب في المنطقة. . فحاصرهم وأسرهم، وأمر بسوق أسيرين منهم لينحرا في منى. . فنحرا عقوبة على قصد حرم الله وحرم رسوله. . وعاد إلى القاهرة بأسراه ظافراً منصوراً[1]، بعد أن أدى واجب الأخوة في الإسلام ودافع عن أرض الجزيرة العربية، وقاتل الذين أرادوا سوءاً بمكة المكرمة، والمدينة المنورة.

ويعلق الرحالة ابن جبير على حادثة الصليبيين تلك فيقول: وذلك أن الصليبيين اجتمعوا وأنشأوا مراكب في أقرب المواضع التي لهم في بحر القلزم، ثم حملوا أنقاضها فلما وصلوا إلى ساحل البحر، سمروا مراكبهم، وأكملوا إنشاءها وتأليفها، ودفعوها في البحر. . وركبوها قاطعين بالحجاج. . وانتهوا إلى بحر النعم (اليمن) فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركباً، وانتهوا إلى (عيذاب) فأخذوا فيها مركباً كان يأتي بالحجاج من جدة. وأخذوا أيضاً من البر قافلة كبيرة، تأتي من قوص إلى عيذاب، وقتلوا الجميع لم يحيوا أحداً. . وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجارة اليمن وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل، كانت معدة لمسيرة مكة والمدينة أعزهما الله. . وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها في الإسلام ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة، وبشاعة، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول ﷺ، وإخراجه من الضريح المقدس. . أشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم. . فأخذهم الله بافترائهم عليه وتعاطيهم ما تحول عناية القدر بينهم وبينه، ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والإسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجاد المغاربة البحريين، فلحقوا العدو، وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوه عن آخرهم،

---

(١) الدين والحياة ص ١٤، عدد رقم ٣٧، وزارة الأوقاف المصرية.

وكانت آية من آيات العنايات الجبارة.. وكفى الله بجميل صنعه الإسلام والمسلمين أمراً عظيماً[1].

وقد يسأل سائل:

وأين أبناء الأمة الإسلامية في ذلك الوقت؟ ولماذا استطاع الأوربيون أن يهاجموا وينتزعوا الكثير من مدن الأمة الإسلامية؟

ولماذا سكت الناس حتى أقام الصليبيون إمارات الرها ـ وإنطاكية ـ وبيت المقدس ـ وطرابلس؟ عندما تبحث عن الأسباب التي أدت إلى كل هذا تجد أن منها:

أولاً: إنقسام دولة السلاجقة عقب موت السلطان (ملكشاه).

ثانياً: تفكك وحدة الأمة الإسلامية، فلا رابطة تجمع هـذه الكثرة الهائلة.

ثالثاً: اختفاء الزعامة الإسلامية القوية، التي تلهب الحماس، وتوقظ الروح الإسلامية.

هذا في الوقت الذي أتحدت فيه أوروبا لأول مرة، على حين كان المسلمون إذ ذاك مقسمين على أنفسهم[2].

وعندما انفرد صلاح الدين بالسلطة.. وضع أمامه هدفاً أقصى: هو تحرير القدس من الصليبيين، وتحرير الشرف الإسـلامي، من الاستعمار الغربي الصليبي. ورأى أن هذا الهدف، لا يتحقق إلا إذا توحدت جبهة المسلمين. لتكون صفاً واحداً.. ضد الاستعمار المفتري.. واتبع الطريق الآتي:

أولاً: توحيد مصر العربية وبلاد الشام في جبهة واحدة عريضة.

ثانياً: جمع المسلمين تحت لواء الإسلام.

---

(١) رحلة ابن جبير.

(٢) انظر كتابنا (من وحي السماء)، ص ٦٣، طبعة سنة ١٣٩٤ هـ.

ثالثاً: إعلان الجهاد في سبيل الله، وبعث الروح الإسلامية، في جميع أنحاء البلاد.

وأثبت التاريخ أن العوامل الثلاثة: كانت من أسباب النجاح للبطل صلاح الدين. وخرج الجيش الإسلامي الزاحف في سبيل الله، تحت قيادة صلاح الدين.. حتى وصل غربي بحيرة طبرية. والتقى هناك بجيوش الصليبيين.. وفي موضع يعرف باسم (اللوبيا). وكان ذلك يوم السبت ٢٥ من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ، الموافق ٤ من يولية سنة ١١٨٧ م.

وحال الجيش الإسلامي دون وصول الصليبيين إلى ماء بحيرة طبريه.. وكلما توجه فريق من الصليبيين نحو البحيرة كان مصيره القتل أو الأسر، ولما اشتد القتال، والتهبت نيران الحرب. وقعقعت السيوف، وتطايرت الرؤوس من فوق الرقاب.. لجأ كثير من الأوروبيين إلى الفرار والهروب إلى جبل (حطين)[1].

(فأووا إلى جبل حطين يعصمهم من طوفان الدمار، فأحاطت بحطين بوارق البوار ورشفتهم الظبا، وفرشتهم على الربا، ورشقتهم الحنايا، وقشرتهم المنايا، وقرشتهم البلايا)[2].

واستطاع أحد جنود الجيش الإسلامي.. أن يشعل النار في الحشيش المحيط بمنطقة حطين، وكان الحشيش كثيفاً، وكانت الريح عاتية. فحملت حر النار والدخان إليهم.. فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال[3]، ولم يجد من نجا من القتل بداً من التسليم.. فاستسلموا وهم صاغرون.. وقام جنود الجيش الإسلامي بإلقاء خيمة ملكهم، وأسروهم عن بكرة أبيهم.

فمن شاهد القتلى في ذلك اليوم قال ما هناك أسير. ومن عاين الأسرى

---

(١) حطين قرية عندها قبر النبي شعيب عليه السلام.

(٢) انظر الناصر صلاح الدين ص ٩٦.

(٣) المصدر السابق ص ٩٦، وابن الأثير ص ١٧٨.

قال ما هناك قتيل، وذلك لكثرة ما أسر وقتل. وبدأ صلاح الدين بعد هذا الانتصار في استعراض الأسرى.

وكان بين الأسرى (أرناط) قائد حصن الكرك والذي هاجم قوافل المسلمين التجارية وسلب أمتعتها. كما أنه هاجم الحجاج المسلمين وهم في طريقهم إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. وكان قد غدر بالقافلة القادمة من مصر إلى الشام وقال لهم (قولوا لمحمد يخلصكم). ولهذا حينما رآه صلاح الدين، أخذ يذكره بجرائمه وقال له: (ها أنذا أنتصر لمحمد ﷺ).

وتمثلت في القائد الإسلامي، شهامة الأخلاق الإسلامية والأدب الإسلامي، فعفا عن الأسرى من الأشراف، والأمراء. أما أرناط فقد قتله صلاح الدين برأ بيمين قد أقسمه ليقتلنه إذا أسره. ويعبر المؤرخ (أيوركا) عن حسن معاملة المسلمين للصليبيين فيقول: (لقد أظهر الجند المسلمون الذين رافقوا المطرودين من أهل الصليب شفقة مؤثرة ولا سيما على النساء والأطفال).

بعد هذا اقتضت خطة صلاح الدين التمهيد لهذا المشروع الكبير، وذلك بالعمل على تحقيق الأهداف التالية:

أولاً: توحيد الصفوف الإسلامية وربطها برباط العقيدة.. وقد تحقق هذا على أقصى ما يكون التضامن والتفاعل مع الأحداث.

ثانياً: تهيئة الروح المعنوية ورفعها إلى أقصى ما يكون من التفاني والتضحية.

ثالثاً: إستعادة المواقع الاستراتيجية من قلاع وحصون وقرى.

وقد تحقق هذا كله، وتجمعت قوى الإسلام الضاربة بروحها المعنوية، وقواتها المادية.

وفي ربيع الأول سنة ٥٥٦ هـ، ١١٧٢م وكمقدمة ضرورية لخنق القدس الصليبية وتأمين الطرق البحرية والبرية بين بلاد المسلمين، اتجه

صلاح الدين إلى العقبة التي كانت في أيدي المسلمين قبل حلول الصليبيين بالشرق.

واتجه إليها الملك الصليبي (بالدوين) في عام ١١١٦ م وبنى فيها قلعة ومن وقتذاك أصبحت مركزاً للاعتداءات، ومهاجمة السواحل الإسلامية، حتى سواحل الحجاز.

وقد استولى عليها صلاح الدين في ربيع الأول سنة ٥٥٦ هـ، وشحنها بالقوات الإسلامية وفي ربيع الأول سنة ٥٧٥ هـ، دمر المسلمون حصن بيت الأحزان. وبعد تدمير حصن بيت الأحزان، أغار صلاح الدين على طبريه وأعمالها، وعلى صور، وبيروت... وفي سنة ٥٧٦ هـ، توغل في البلاد، ودمر القلعة الحصينة المعروفة باسم المنافير ودخل ملكها (ليو الثاني) في طاعة صلاح الدين وأطلق من عنده من أسر من المسلمين.

وفي سنة ٥٧٨ هـ غزا طبرية وعكا، وفتح ديورية قرب طبرية.. كما انتصر على الصليبيين في هذا العام عند طبرية، وبيسان، وحصن كوكب.. وبعد هذا كله من الأعمال البطولية التي دوخت الغزاة أصبح الطريق متجهاً إلى بيت القدس.

وتقدمت الجيوش الإسلامية تزحف كالجبال فوق الجبال، وكالبحار في البحار وطوقت المدينة وحاصرتها، ثم دخلتها فاتحة. وسلمت المدينة ودخل المسلمون القدس في يوم الجمعة ٥٧ من رجب سنة ٥٨٣ هـ ٢ من أكتوبر سنة ١١٨٧ م ويعرب عن هذا العماد الأصفهاني فيقول في انتصار صلاح الدين[١]:

نـزعت لبـاس الكفـر عن قـدس أرضهـا
وألبستهـا الـدين الـذي كشف اللبسـا

(١) راجع أدب الدول المتتابعة ص ٤٨٤، للدكتور عمر موسى باشا، والحروب الصليبية لمحمد سيد كيلاني ص ٢٢، ٢٣. طبع دار الكتب العربي بمصر.

وعـادت بـبـيـت الله أحـكـام ديـنـه
فـلا بـطركـا أبـقيـت فيـهـا ولا قسـا
يـا يـوم حـطيـن والأبـطال عـابـسـة
وبـالفجـاعـة وجـه الشمس قـد عبسـا
رأيـت فيـهـا عـظيم الـكفـر محتـقـراً
مـعـفـراً خـده والأنـف قـد تـعـسـا

وقد أحسن صلاح الدين معاملة الأسرى.. وكان في القدس من الصليبيين مائة ألف صليبي منهم ستون ألف راجل وفارس سوى من تبعهم من النساء والأطفال. فأبقى صلاح الدين على حياتهم واستوصى بهم خيراً، وأغضى عن جواهر الصليبيين من الذهب والفضة، وعامل نساء الإفرنج معاملة لطف، وسهل سبل الخروج لملكتين عظيمتين بما معهما من أموال وجواهر وخدم، ورخص للبطريك الأكبر أن يسير آمناً بأموال البيع، وذخائر الجوامع التي كان غنمها الصليبيون في فتوحاتهم[1].

ورغم هذا التسامح الإسلامي الذي عرف به المسلمون، فإن هذه الانتصارات أفزعت أوروبا، وكان لها رد فعل عظيم.. فبشرت البابوية بحملة صليبية جديدة. ويبدو أن الناس كانوا لا يزالون متأثرين بقول البابا أوربان الثاني (ليست هذه الحرب لاكتساب مدينة واحدة فقط.. بل هي أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى، فاملكوها لأنفسكم، فهذه الأرض، كما قالت كتبكم المقدسة تفيض لبناً وعسلاً)[2].

وفي هذه العبارة، دليل يؤيد بوضوح الأطماع الاستعمارية لهذه الحرب.

وقد لبى الدعوة إلى الحرب كثير من الناس وعلى رأس الحملة التي

---

(١) انظر: تاريخ العالم الإسلامي ص ١٩٤ ـ ١٩٥، وزارة المعارف السعودية.
(٢) انظر: تاريخ العالم الإسلامي ص ١٩١.

تكونت كان ثلاثة من أكبر ملوك أوروبا. . وهم:

فردريك بر بروسا (إمبراطور ألمانيا).
وريتشارد قلب الأسد (ملك إنجلترا).
وفيليب أغسطس (ملك فرنسا).

أما إمبراطور ألمانيا فقد جاء براً عن طريق البلقان والأناضول. وشاء الله أن يغرق في أحد أنهار الأناضول وتشتت جنوده. أما ملكا انجلترا وفرنسا، فقد جاءا عن طريق البحر، ومرا بجزيرة صقلية.

ثم اتجه رتشارد إلى جزيرة قبرص. . بينما واصل فيليب أغسطس تقدمه إلى عكا، وحاصرها. وبعد مدة لحق ملك إنجلترا بالمحاصرين لعكا، وبعد جهود طويلة تمكن الجميع من الإستيلاء عليها، بعد حصار استمر سنتين[1].

ولقد نسى الصليبيون المعاملة الحسنة من جانب المسلمين. . وذلك أنهم حين استبطأوا دفع الغرامة التي فرضها قلب الأسد ملك الإنجليز على صلاح الدين ولم يرد إليه (صليب الصلبوت)، أخذ ملك الإنجليز ألفين وسبعمائة من أسرى المسلمين وقتلهم على رأس تل في عكا. . وبقر عسكره بطون المقتولين ليروا إن كان فيها شيء من الجواهر والذهب، ظناً منهم، بأنهم ابتلعوا شيئاً منها، وحباً في الانتفاع بمرائرهم يتخذونها دواء يستشفون به[2].

وبعد سقوط عكا زادت حدة الخلاف بين ريتشارد وفيليب، فرجع الأخير إلى بلاده، وبقي ريتشارد وحده، حيث دارت بينه وبين صلاح الدين

---

(١) راجع تاريخ العالم الإسلامي ص ١٩٨، طبع وزارة المعارف السعودية سنة ١٣٩٣ هـ.

(٢) انظر الإسلام والحضارة العربية، الجزء الأول ص ٢٩٨.

عدة معارك إضطر بعدها للدخول مع صلاح الدين في مفاوضات استقرت عن (صلح الرملة) سنة ١١٩٢، ومن شروطه:

أولاً: أن تبقى البلاد الداخلية بما فيها بيت المقدس بأيدي المسلمين مع السماح للحجاج المسيحيين بزيارة أماكنهم المقدسة فيها عزلاً من السلاح.

ثانياً: أن تترك للصليبيين قطعة ضيقة بين حيفا وصور وتشمل عكا.

ثالثاً: أن يحتفظ صلاح الدين بجميع فتوحاته.

ولم يعمر صلاح الدين طويلاً.. فقد توفي بعد عام من نهاية الحملة الصليبية في مدينة دمشق(١).

وقد خلد جهاده ضد الصليبيين صفحة من صفحات التاريخ الإسلامي المشرق، وكان صلاح الدين سمحاً عفواً كريماً، تنزه عن العدوان وإراقة الدماء، فلم يصنع بالصليبيين ما فعلوا بأهل بيت المقدس حين وضعوا السيف في رقابهم شيباً وشباباً وأطفالاً ونساءً.

وكان فرق ما بينه وبين الصليبيين قبل تسعين عاماً، وكان فرق ما بين تعاليم الإسلام السمحة التي صانت صلاح الدين من شر ما وقع فيه الصليبيون وتعاليم الأمم المنهارة التي تشهر السيف بدل المحبة، وتزكي روح التعصب بدل التسامح(٢).

ولعل القاريء يعرف أن الحروب الصليبية لم تنته بمعركة حطين.. في النصف الثاني من القرن الثاني عشر.. بل كانت معركة حطين.. بداية النهاية... حيث كانت هذه النهاية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر.

---

(١) تاريخ العالم الإسلامي ص ١٩٩، وزارة المعارف السعودية ٩٣ هـ.

(٢) انظر معارك حاسمة مقال الدكتور حسين فوزي، مجلة التضامن الإسلامي ص ٦٦٦، وزارة الحج السعودية المجلد ٢٨.

لتتجه إلى مصر موجتان أبيدتا بضربة قاضية، ليعود الصراع إلى الشام حيث دفنت الصليبية العسكرية وأغرقت في البحر المتوسط، لتظهر من جديد في الأندلس في القرون ـ الثالث عشر والرابع عشر، والخامس عشر. وتختزل البرتغال الدور الصليبي الجديد فتبدأ من نهاية القرن الخامس عشر في انتزاع عصب الاقتصاد الإسلامي.

ولقد كان التوسع البرتغالي على حساب المسلمين، والتاريخ يقول: أنه بعد ذلك وفي خلال العقد نفسه كانت الصليبية البرتغالية تضرب بعنف دول المدن الإسلامية على ساحل إفريقيا الشرقي، ثم تستولي على البحرين قرناً كاملاً. إلى أن طردت، وتهاجم عدن ومسقط وتتحالف مع الحبشة ضد مصر حيث بدأ تعاون بينهما منذ الصليبيات الأولى وكان مشروعهما الخيـالي لتحويل مجرى النيل الأزرق في الحبشة إلى البحر الأحمر، لتجف مصر وتنقرض جوعاً، ويهدم بيت من بيوت الإسلام.

وقد حاول (البوكيرك) تنفيذ هذا الحلم ولكن الجغرافيا تهزمه[1].

إن الحروب الاستعمارية التي اجتاحت العالم الإسلامي، تمثل هزات خطيرة إنقضت على العالم الإسلامي لتفترس كل ما فيه. وسوف تبقى هذه الحروب دراسة حية للمفكر والعاقل، تبين تسامح الإسلام والمسلمين حتى في معاملة أعداء الحق والدين.

كما توضح: إن قوة الأمة الإسلامية كامنة في اتحادها وإحساسها العملي بالجامعة الإسلامية.

---

(١) مقال الأستاذ صلاح صميده بمجلة كلية اللغة بالرياض، المجلد الثالث.

معركة عين جالوت

في السهول المترامية الأطراف، في أواسط آسيا، حيث الشمس المحرقة في النهار والبرد القارس في الشتاء، كان يعيش المغول، والتتر، والتركمان، حياة بداوة في سهوب آسيا. .

وكانوا يعتمدون في حياتهم على تدجين الحيوانات، وتربية الخيول، والانتقال من مكان لآخر، طلباً للماء، والكلأ. . .

بالإضافة إلى ذلك كانوا يعيشون على صيد الحيوانات الوبرية. .

وهذا النوع من البيئة جعل المغول شديدي المراس، ذووا جلد وصبر على مجابهة المصاعب والمشقات. . .

لقد عاش المغول والتتار في صفاء ووئام مدة من الزمن ثم دارت رحى الحرب فيما بينهم أسفرت عن تغلب المغول وانتصارهم على أبناء عمومتهم التتار. ثم خضع المغول لسلطان الصينيين. . وظلوا كذلك حتى ظهر «جنكيز بهادرخان» وكان يحلم بقيام أمة مغولية واحدة تحتل العالم. . ونشأ في بيئة مليئة بالقسوة، وسفك الدماء. والبيئة لها أثرها على حياة الإنسان. . وانغمس (جنكيز) في أول حياته بالمعارك التي كانت تنشب بين قبائل المغول. .

وقد كان شجاعاً مغامراً وقد ورث العرش عن أبيه وهو في الثالثة عشرة من عمره. . . وانصرف بعد ذلك بسنوات إلى خوض المعارك داخل «منغوليا» حتى تم له توحيد القبائل المتنازعة. . وكان له الفضل في صهر القبائل فقد

ضم جميع قبائل المغول والتتر، وبعض التركمان، في وحدة عسكرية قوية جعلتهم من أقوى الجيوش وأعتاها.. وتوصل بهذا إلى توحيد القبائل.. وبعد أن اكتسح المغول بقيادة (جنكيزخان) شمال الصين ووصلت جيوشه. بحر قزوين اتجهت أنظار القائد المغولي إلى أوربا وصارت حتى وصلت إلى سهول «هنغاريا»..

وبعد أن سيطر على بلاد الصين، وبسط نفوذه، على شرق آسيا وضع دستوراً لأتباعه نظم بموجبه علاقته مع أفراد الدولة.. وفرض عقوبات شديدة على كل من يرتكب مخالفة النصوص الدستورية.. وبموجبه تمكن (جنكيزخان) من إخضاع الأفراد لطاعته طاعة عمياء..

وبسيطرة (جنكيزخان) على كثير من البلاد أصبح مجاوراً للممالك الإسلامية.

وصادف أن قصد تجار من المغول بلاد خراسان، وادعوا أن أحد الولاة عاملهم معاملة سيئة، وشكوا إلى ملكهم (جنكيزخان) الذي اتخذ هذه الحادثة ذريعة للتحرش بالدول الإسلامية وأعد الجيوش التي تفوق الحصر»[1].

وأرسل (جنكيزخان) إلى سلطان المسلمين (محمد خوارزم شاه) الرسالة التالية: «إنك قد أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار، وألا تتعرض لأحد منهم، فغدرت ونكثت والغدر قبيح ومن سلطان الإسلام أقبح، فإن كنت تزعم أن الذي ارتكبه (ينال خان)[2]، كان من غير أمر صدر منك.

(١) راجع: تاريخ العالم الإسلامي.. ص ٢٠١، ٢٠٢ وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية سنة ١٣٩٣ هـ.

(٢) يقال أن (ينال خان) حاكم مدينة «أترار» عندما رأى ما مع التجار المغول من نفائس شرهت نفسه. فقتل هؤلاء التجار إلا شخصاً واحداً منهم استطاع أن يفر ويحمل نبأ تلك الحادثة.

فسلم (ينال خان) إليّ لاجازته على ما فعل حقناً للدماء، وتسكيناً للدهماء، وإلا فأذن بحرب ترخص فيها غداً الأرواح»[1].

ولكن السلطان محمد رفض هذا الاحتجاج كما رفض تسليم (ينال خان) ولم يقف أمر السلطان عند هذا الحد، بل أنه أمر بقتل رسل جنكيزخان سنة ٦١٥ هـ.

فقطع بذلك كل أمل ممكن في التفاهم مع المغول، وأصبحت الحرب بين الطرفين أمر لا بد منه. .[2].

وفي خريف عام ٦١٦ هـ، عبأ جنكيزخان جيوش المغـول، لفتح الممالك الإسلامية والقضاء على الإسلام والمسلمين فيهما. .

وسارع المغول إلى محاصرة مدينة «أترار» وبعد دفاع مستميت عن المدينة في حصار دام خمسة شهور وقع حاكم المدينة «ينال خان» في قبضة «جنكيزخان» الذي سنحت له الفرصة للتشفي من خصمه، والتنكيل به. .

فأمر بأن تصهر الفضة، وتسكب في عينيه وأذنيه، حتى مات بهذه الطريقة البشعة. . وعلى أثر وصول المغول إلى مدينة (أترار) لم يبقوا على شخص قط. مدفوعين بالحقد. . فكل من وجدوه في طريقهم، جعلوه طعمة لسيوفهم، وذلك بعد أن نهبوا ممتلكات هؤلاء الضحايا، وأسروا عدداً كبيراً من السكان. .

وفي الرابع من ذي الحجة سنة ٦١٦ هـ، فتحت مدينة (بخارى) أبوابها لجنكيزخان وجيوشه. .

يروي الجويني: أن جنكيزخان، دخل المدينة ليتفقد ما فيها، ثم ذهب إلى المسجد الجامع، ووقف أمام المقصورة، وسأل عما إذا كان هو قصر السلطان؟.

(١) سيرة جلال الدين ص ١٦.
(٢) المغول في التاريخ ص ٥٣.

فقيل له: إنه بيت الله، فترجل عن حصانه، وصعد المنبر، وصاح قائلاً: «كانت الصحراء خالية من العلف أما الآن فاملئوا بطون خيولكم، وأشبعوها». .

وعلى الفور قام جنده، ونهبوا المدينة، وفتحوا المخازن، واستولوا على التلال. . ثم حملوا إلى فناء المسجد عدة صناديق تحوي مصاحف القرآن الكريم وألقوا بها تحت حوافر الخيل، وحولوا الصناديق إلى مذاود للخيول[1]، أما قلعة المدينة فقد استمرت تقاوم مدة إثنى عشر يوماً وكان بها أربعمائة شخص، دافعوا دفاع الأبطال، إلى أن سقطوا جميعاً صرعى على أيدي هؤلاء السفاحين. .

وقد جن جنون (جنكيزخان) عندما رأى كثيراً من جنوده قد هلكوا بسبب ضربات هؤلاء الأبطال، فأمر بإضرام النيران في أبنية المدينة، وقد احترقت بأسرها في أيام قلائل، ولم يسلم من الحريق سوى المسجد الجامع، وبعض القصور التي كانت مبنية من الآجر. .[2].

ومن هذا ترى: أنه تم القضاء على الحركات العلمية والثقافية، لأن بخارى كانت من أعظم مراكز العلم والعرفان. .

ومع أن «سمرقند» و «بلخ» قد استسلمتا، إلا أنهما لم يسلما من أعمال النهب والسلب والقتل، ثم وصلت طلائع جيشه إلى خراسان، فاستولت على مدينة «مرو» وبطشت بسكانها، وحرقتها ونهبت أموالها. .

وعندما تقدم الجيش المغولي إلى مدينة «نيسابور» واجهته مقاومة شديدة على الأسوار، وفي الشوارع. . دامت أربعة أيام، إلى أن استحالت المقاومة، فاختار المغول أربعمائة من صناعها أرسلوها إلى «منغوليا» وأما بقية السكان من رجال ونساء وأطفال فقد أبادوهم عن بكرة أبيهم. .

---

(١) المغول في التاريخ: ص ٦٢، وتاريخ جهانكشاي ص ٨٠، ٨١. .

(٢) الدين والحياة ص ٢٦، عدد رقم ٣٧. والمغول للدكتور الصياد ص ٦٢.

ونجت «هيرات» من هذا المصير عندما فتحت أبوابها للجيش المغولي . .

ثم دخل الجيش المغولي بعد ذلك بلاد السند، وغزا مقاطعاتها الثلاث وخربها، ولكنه سرعان ما انسحب منها، عندما علم بأن أهل «هيرات» ثاروا على حاكمهم المغولي . . فحاصرها ستة أشهر دافع أهلها عنها طوال هذه المدة، دفاع الأبطال. غير أنهم غلبوا أمرهم . . فما كان من المغول إلا أن أعطوا السيف في أهلها أسبوعاً كاملاً، قتلوا فيه خلقاً كثيراً . .

ثم توجه بعد ذلك إلى «أزربيجان» وفتحها. وقد حاول أمراء الروس في «كييف» صد غزو المغول ولكنهم فشلوا. ولم يقووا على مواجهتهم . . وهنا وجه «جنكيزخان» جيوشه مرة ثانية إلى الصين. وفتح قسماً كبيراً من شمالها . .

ولما توجهت جيوشه لمحاربة القسم الجنوبي من الصين بدت ظاهرة غريبة في السماء وهي اجتماع خمسة كواكب في برج واحد، ففسرها بأنها إشارة تتم عن سوء الطالع، وترك غزواته بالصين، وكر راجعاً إلى بلاده منغولياً، حيث لم يلبث أن مات سنة ٦٢٦ هـ، ١٢٢٧ م . .[١].

خلف جنكيزخان بعد وفاته ابنه «اكوتاي» حسب وصيته، فتوجه هذا إلى الصين حيث غزا قسماً كبيراً منها، ثم توجه الجيش المغولي إلى الغرب، فوصل ديار بكر والجزيرة الفراتية، وإربل، وجورجيا، وأرمينيا الكبرى، وروسيا، ففتح قسماً منها بما فيها مدينة «موسكو» التي لم تكن مهمة في ذلك الوقت، ثم واصل زحفه إلى «كييف» التي كانت تسمى بأم المدن. لازدهارها، فذبح سكانها وهدمها . . ومن هناك توجه الجيش المغولي إلى «هنغاريا» فأباد جيشها في هجوم ليلي . .

(١) انظر قافلة الزيت ص ٣٩، مقال الأستاذ عبد الحافظ كمال بعنوان: «معركة عين جالوت من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي».

وكذلك أخضع «بودابست» وقطع نهر الدانوب وهو متجمد. .

ثم توجه إلى بولنده... حيث بلغ أفراده نبأ موت الامبراطور «أكوتاي». .

وقام النزاع بين امراء المغول، حتى انتهى بانتخاب «منكو» إمبراطوراً عليهم. .

ولما علم «منكو» بأن الإسماعيليين المقيمين في قلاعهم الحصينة في (إيران)، كانوا يتعرضون لقوافل التجارة المغولية، ولجيش المغول، أرسل آخاه:

«هولاكو» عليهم لإخضاعهم. .

فوقعت تلك القلاع بأيدي المغول، بعد عناء ومشقة، ثم أكمل «هولاكو» طريقه غرباً نحو الامبراطورية العباسية في بغداد[1]. .

وفي يوم الأحد الرابع من صفر سنة ٦٥٦ هـ، الموافق (العاشر من فبراير سنة ١٢٥٨ م). . خرج الخليفة من بغداد، وسلم نفسه وعاصمته للمغول، بلا قيد ولا شرط. . بعد أن وعده «هولاكو» بالأمان. . واصطحب الخليفة معه ألف ومائتان شخص من عليه القوم، من قضاة، وعلماء، وتجار، وصناع، فلما وصلوا إلى المعسكر. أمر «هولاكو» بوضعهم في مكان خاص، وتقسيمهم جماعات، وقبض على المعتصم (آخر خلفاء الدولة العباسية)، وطلب إليه أن يكلف أتباعه، والمقربين إليه أن يخرجوا من بغداد، حتى إذا اكتمل عددهم في قبضة المغول. . قتلوا عن آخرهم[2]. .

وفي اليوم السابع من صفر سنة ٦٥٦ هـ، أعلن الهجوم العام على المدينة، وذلك بأن كلف قوات المغول بدخول المدينة فدخلوها، وأتوا على

---

(١) المصدر السابق ذكره.

(٢) راجع المغول في التاريخ ص ١٦٨. . وطبقات ناصري للجورجاني ص ٤٢٧.

كل ما فيها، فخربوا المساجد، وهدموا القصور، وأباحوا القتل، والنهب، وسفك الدماء. . .

وكان استهتار المغول بالنفوس بالغاً حد الفظاعة. . ويروى أن أحدهم: دخل زقاقاً، وقتل أربعين طفلاً شفقة منه ورحمة، حين علم أن أمهاتهم قتلن من قبل، ويقدر المعتدلون من المؤرخين عدد القتلى بثمانمائة ألف نسمة[1].

ولما نودي ببغداد بالأمان. . خرج من تحت الأرض. من كان بالمطامير، والمقابر، كأنهم الموتى، إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً، فلا يعرف الوالد ولده، ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد، فتفانوا، وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى[2]. .

ويصف المؤرخون حادثة ظهور التتار: بأنها حادثة عظيمة، ومصيبة كبرى، عقمت الأيام والليالي عن مثلها، وأنها عمت الخلائق، وخصمت المسلمين، وأن العالم منذ خلق الله تعالى آدم إلى وقت ظهور التتار، لم يبتل بمثلها، لأن التواريخ لم تذكر في صفحاتها حادثة من حوادث الزمن تقاربها، ولا تدانيها. . وهؤلاء التتار لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة[3].

وبعد أن دمر «هولاكو» بغداد، وقضى على مظاهر الحضارة الإسلامية فيها، تقدم إلى بلاد الشام ماراً بشمال العراق، ثم توجه إلى حلب، وكان القتل والتدمير ونصب الجماجم هي المثل العليا، للجنود المغولين، وواصل هولاكو زحفه واستولى على دمشق. . وبذلك وقف على حدود الدولة المملوكية[4]. .

---

(١) المغول للدكتور الصياد ص ١٧٠، ودول الإسلام للذهبي ص ٢، ص ٤٣.

(٢) انظر: البداية والنهاية، لابن الأثير الجزء الثالث عشر ص ٢٠٣.

(٣) انظر: ابن تيمية للأستاذ سعد صادق محمد ص ١٢، ١٣.

(٤) تاريخ العالم الإسلامي ص ٢٠٣، ٢٠٤. وزارة المعارف السعودية.

وإلى هذا الحد، نقف لنأخذ أنفاسنا. والتي ضيق عليها خناق تلك الرؤى التي تقشعر لها الأبدان..

وقد يسأل سائل في هذه الاستراحة..

أين الخلافة الإسلامية المتمثلة في الدولة العباسية؟

ولماذا لم يستطيع المسلمون صد هذه الكوارث التي لا تبقى ولا تذر، لواحة للبشر؟..

وجملة ما يقال في هذا الموضوع: أن ولاة الدولة العباسية، درجوا أن يعهدوا في تولية الحكم لأكثر من واحد.. وأدى هذا النظام إلى قيام الخلافات والحروب بين الأبناء، واستغلت العناصر الدخيلة هذه الفرصة لإشعال الفتنة، مما كان له أسوأ الآثار على الأمة. يضاف إلى ذلك أن العالم الإسلامي يعيش في ظل خلافة واحدة، وانقسم فيما بعد إلى ثلاث خلافات: العباسية في العراق، والفاطمية في مصر، والأموية في الأندلس.

وقد كانت كل خلافة تسعى لإضعاف الأخرى والقضاء عليها..

ولهذا لم يستطيع المسلمون مقاومة هذا الجراد المنتشر، والزاحف كالموج، والذي دمر العواصم العلمية في بلاد العالم الإسلامي، وأصبح طامعاً في مصر والشمال الإفريقي ولهذا بعث «هولاكو» برسله إلى سلطان مصر يهدده، ويطلب منه التسليم والإذعان.

كان هذا في الوقت الذي كانت فيه سوريا وفلسطين تعانيان من الحملات الصليبية المتكررة..

فقبل معركة «عين جالوت» بعشر سنين.. كانت الحملة الصليبية السابقة بقيادة «لويس التاسع» «ملك فرنسا». قد نزلت في دمياط في دلتا مصر، وسارت نحو القاهرة، وفي تلك الأثناء مات «نجم الدين أيوب» آخر ملوك الأيوبين في مصر، فتسلمت زمام الأمر من بعده زوجته المشهورة «شجرة الدر»، التي أخفت على الشعب نبأ موته، وحكمت البلاد باسمه في أحلك

الساعات، إذ كانت معركة «فارسكور» قد بدأت، وكان يقود الجيش الإسلامي حينذاك القائد «بيبرس» الذي أنزل بالصليبيين هزيمة ساحقة، وأسر لويس التاسع، وحبسه في دار لقمان إلى أن افتدى نفسه ورؤساء جيشه بالمال الكثير، ثم تولى الأمر «عز الدين أيبك الصالحي» أول أمراء المماليك، ولكنه قتل، فتولى الحكم من بعده «قطز» وذلك في عام ٦٥٧ هـ، ١٢٥٩ م[١].

وفي ذلك الوقت فتحت مصر أبوابها للقادمين إليها من العلماء والأدباء، والفضلاء، الذين فروا من جحيم المغول، وكثرت رحلة هؤلاء جميعاً إلى هذا البلد المضياف..

وهناك في مصر: أمن الناس والعلماء، والأدباء على أنفسهم، وأحدثوا حركة علمية كبيرة، أثرت في العلماء المصريين تأثيراً كبيراً، فدعتهم إلى التفكير في إنقاذ الثقافة الإسلامية، التي جنى عليها الجهل، والظلم، والتوحش، ورأى العلماء يومئذ أن خير طريقة، ينقذون بها الثقافة الإسلامية الضائعة، هي جمع المواد التي تتألف منها هذه الثقافة في كتب كبيرة، على شكل موسوعات أو دوائر معارف..

وتألم «هولاكو» من هذا الوضع، وأرسل رسالة تهديد إلى سيف الدين قطز عام ٦٥٨ هـ[٢]..

وفي أواخر شعبان ٦٥٨ هـ، كان «قطز» يعد العدة لمواجهة أسوأ الأمور، ويتوجس خيفة من تلك الأيام المظلمة الحالكة، غير أنه في تلك اللحظة وصل إلى «هولاكو» في دمشق، نبأ وفاة أخيه «منكوخان» إمبراطور المغول.. فأخفى هولاكو الأمر.. وعين «وايل سابان» نائباً للملك في دمشق. وعين قائده «كتبوغا» قائداً عاماً لجيش المغول..

أما «هولاكو» فذهب إلى أواسط آسيا.

---

(١) قافلة الزيت مقال الأستاذ عبد الحافظ كمال.

(٢) مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية ص ٢٩٠.

وكان (قطز) قائداً يعتز بإيمانه بالله، ولهذا عمل على توحيد الجبهة الداخلية فوحد الصفوف والأحاسيس، وأزل بعبقريته الفذة، اليأس الذي أصاب الناس، والقنوط المظلم..

وفي صباح يوم من أوائل رمضان عام ٦٥٨ هـ دخل حاجب القائد «قطز» يخبره أن رسل المغول قد وصلت، فدخل الوفد، وكان يضم أربعين رجلاً برئاسة قائد بشع الصورة، وقدم إلى القائد الإسلامي رسالة من هولاكو، فقرأها «قطز» وجاء فيها: «إن الله تعالى قد رفع شأن جنكيزخان وأسرته، ومنحنا ممالك الأرض برمتها، وكل من يتمرد علينا ويعصي أمرنا يقضي عليه مع نسائه، وأبنائه، وأقاربه. والمتصلين به، وبلاده ورعاياه.. كما بلغ أسماع الجميع. أما حيث جيشنا الذي لا حصر له فقد بلغ الشهرة كقصة رستم وإسفنديار، فإذا كنت مطيعاً كخدم حضرتنا فأرسل إلينا الجزية، واقدم بنفسك واطلب الشحنة، وإلا فكن مستعداً للقتال».

ومن المعروف أن الجيوش الإسلامية قد تجمعت كلها تحت قيادة «قطز»..

وقد جمع القائد «قطز» قادة هذه الجيوش وكذلك قائد الجيش المصري «بيبرس» للتشاور والبحث عن مخرج من هذا الهول المرعب وبدأ «قطز» الجلسة بكلمة افتتاح جاء فيها:

«لقد توجه هولاكوخان من تيران[1]، إلى إيران بجيش جرار، ولم يكن لأحد من الخلفاء والسلاطين والملوك، طاقة على مقاومته، واستولى على جميع البلاد، ثم جاء إلى دمشق، ولو لم يبلغه نعي أخيه لألحق مصر بالبلاد الأخرى، ومع هذا فقد ترك في هذه النواحي «كتبوغا» الذي هو كالأسد الهصور، والتنين القوى في الكمين، فإذا قصد مصر فلن يكون لأحد قدره على مقاومته، فيجب تدبر الأمور قبل فوات الفرصة «فقال ناصر الدين

(١) تيران: بلاد الأتراك في أواسط آسيا.

قيمري أحد القادة: «أن هولاكوخان فضلاً عن أنه حفيد جنكزخان، فإن شهرته وهيبته في غنى عن الشرح والبيان وأن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها في قبضته الآن. .

فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان فليس في ذلك عيب أو عار، ولكن تناول السم، بخداع النفس واستقبال الموت، أمران بعيدان عن حكم العقل، أنه ليس بالإنسان الذي يطمأن إليه، فهو لا يتورع عن قطع الرؤوس، وهو لا يفي بعهده وميثاقه فإنه قتل فجأة: خورشاه، والخليفة، وحسام الدين، بعد أن أعطاهم العهد والميثاق فإذا ما سرنا إليه فسيكون مصيرنا هذا السبيل». .

فقال قطز: «أضحت البلاد من بغداد حتى الروم (آسيا الصغرى) خراباً يباباً. . وقضى على جميع ما فيها من حرث ونسل، فلو أننا تقدمنا لقتالهم، فسوف تخرب مصر خراباً تاماً، وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة واحداً من ثلاثة: الصلح. . أو القتال. . أو الجلاء عن الوطن. . أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر، ذلك لأنه لا يمكن أن نجد لنا مفراً إلا المغرب، وبيننا وبينه مسافات بعيدة. .

فأجاب ناصراً الدين قيمري: «وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم، إذا أنه لا يوثق بعهودهم».

وبعد أن تداول القادة الرأي، وقلبوه على وجوهه، وبحثوه، رأوا أن يكون الرأي الأخير لقطز. . وقالوا له «ربما يقتضيه رأيك». .

عندئذ أطرق قطز طويلاً، ثم رفع رأسه، وقال: «إن الرأي عندي أن نتوجه جميعاً إلى القتال، فإذا ظفرنا، فهو المراد، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخالق والخلق».

فاتفق الأمراء وجميع قادة الجيش، على هذا القرار وتدعيماً لهذا الرأي رفض قطز الرسالة التي وصلته من هولاكو بشدة وعنف، وزاد على ذلك بأن قتل رسل هولاكو.

وبهذا قطع قطز كل رجاء أو أي أمل في التفاهم، وأصبحت الحرب أمر لا بد من مواجهتها، مهما كانت الظروف واستعد المسلمون في مصر لهذه المواجهة الخطيرة وأدرك الناس مدى التصميم، وعبء المعركة..

وبدأت طلائع جيوش المسلمون تتحرك، قوة وإيماناً وكانت جيوش المغول في غزة بقيادة الأمير المغولي «بايدر»..

ولما علم (بايدر) بتحرك المصريين. أسرع بالكتابة إلى «كتبوغا» وكان بالقرب من بعلبك.. يخبره بتحرك المسلمين.. وأجابه كتبوغا برسالة تضمنت «قف مكانك وانتظر»...

وفي تلك الأثناء هاجم بيبرس قائد الجيش الإسلامي «بايدر» قبل وصول (كتبوغا) وطاردته بعض الوحدات الإسلامية حتى نهر العاص..

فاستشاط «كتبوغا» غيظاً.. وسار كما يقول المصدر المغولي: و«كأنه بحر من اللهب لسبب الغيرة والغضب»..

وأقبل في منتهى السرعة معتمداً على قوته، وسطوته، وسمعة المغول الحربية، في الشراسة، وعدم الإنكسار[1]. ووصلت جيوش المسلمين إلى (عين جالوت) وهي تقع بين طبريه ونابلس، وقرب بيسان في غور الأردن. وهناك نصبوا الخيام، وأعلن قطز تضليلاً للجواسيس أنهم سيمكثون هناك بضعة أيام يستجمعون خلالها، ويريحون أنفسهم وخيولهم استعداداً لحرب ضروس، لا يعرف عواقبها إلا الله سبحانه وتعالى.

وكان الشهر رمضان عام ٦٥٨ هـ والحر شديد، غير أن قطز وبيبرس، قررا سرياً ملاقاة العدو عند ذلك الوادي..

فخرجا يتفقدان الألوية في الظاهر، ويدرسان طبيعة الأرض، وتضاريسها، وأوديتها وقلاعها في الباطن..

---

(١) قافلة الزيت ص ٤١، مقال الأستاذ عبد الحافظ كمال.

وفرقا الجيش على الأودية المختلفة بحجة أن ذلك يعطي مجالاً أوسع لرعي الخيل، والجمال وغيرها. وتدارس قطز وبيبرس الأمر ملياً بعد منتصف الليل..

وقررا إعداد كمائن عديدة لا كميناً واحداً..

وقد وصلت الأخبار بأن كتبوغا قادم كالسيل على بضعة أميال من الجيش الإسلامي.

فقرر قطز أن يقود المقدمة المصادمة للمغول.. وأن يقود بيبرس القلب ثم يوزعان إلى بقية الألوية بالإشتراك في القتال في وقت لاحق، تخرج الكمائن فيه فجأة عند إشارة معينة، فتلتحم في رحى المعركة المصرية..

وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ.. قام المسلمون فجراً وملأوا الأودية، والسهول، والآكام بالتهليل والتكبير لصلاة الصبح وبعدها سار (قطز) بالمقدمة لمصادمة الأعداء فالتحم الجيشان..

وكان قطز - حسب قول المؤرخ رشيد الدين - قد عبأ الجيش في كمين، وأعده، خير إعداد، ثم ركب هو بنفسه، وثبت مع نفر قليل من الجند، وقابل (كتبوغا)، مع عدة آلاف من الفرسان كلهم من أهل الحرب والمراس، في «عين جالوت»... فقذف المغول بسهامهم، وحملوا على المسلمين فتراجع «قطز» وبدأ أن جنوده لحقت بهم الهزيمة هنا تشجع المغول وتعقبوه، وقتلوا كثيراً من المسلمين الذين استدرجوا المغول إلى بقعة معينة، فخرجت الكمائن من ثلاث جبهات...

وكان أن عملت أولاً على إيقاف اندفاع الجيش المغولي، ثم على صده.. ثم على تطويقه[1].. واشتد القتال، وارتفع الغبار، وقعقعت السيوف. وتطايرت الرؤوس.. ودارت الدائرة على المغولين، وهزموا هزيمة

---

(١) قافلة الزيت ٤١.

منكرة.. لأول مرة في حياتهم وبدأت جموعهم تتشتت، ووحداتهم تتفرق، ولم يبق إلا شرذمة التجأت إلى غابة من القصب، فأمر قائد الجيوش الإسلامية بإشعال النيران فيها فأتت على من فيها من المغول..

ووقع قائد الجيش المغولي (كتبوغا) أسيراً في يد المسلمين.. وتم قتله وطارد المسلمون فلول المغول، وتشجع أهل دمشق فبادروا إلى أسر من عندهم...

وصدق الله في قوله «وعد الله الذين آمنوا ومنكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾[1]، وشاء الله سبحانه وتعالى أن ينصر الأمة الإسلامية على هؤلاء الطغاة.. بعد طول معاناة..

وقد صدق الله وعده.. فأعز جند المسلمين، وهيأ لهم النصر..
ومعركة عين جالوت من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي..

وقد انتصر فيها المسلمون بعد أن توحدت الصفوف وتجمعت القلوب والمشاعر، والأحاسيس..

وكان قتال جنود مصر باسم الإسلام، وفي ظل الإسلام ولهذا كان شعار قائد المعركة «وا إسلاماه»..

إن الإسلام طاقة فعالة، تدفع بالمسلم إلى ميدان القتال دون خوف أو تهيب..

ومما هو جدير بالذكر أن الدين الإسلامي، قد تغلب في نفوس المغول على الوثنية التي جاؤوا بها، واعتنقوه واستقروا حيث وصلت بهم الفتوح حاكمين ثم مندمجين في الشعوب الآسيوية شرق العراق.. واستجاب كثير

---

(١) سورة النور آية ٥٥.

من أمراء المغول، إلى هذا الدين الحنيف وكان أسرعهم إلى الإستجابة ابن عم هولاكو. الذي يحكم القوقاز وكان اسمه بركة خان. . وقد أرسل إلى هولاكو يخبره أنه سينتقم للمسلمين الذين أراق ـ دماءهم بإراقة دمه هو شخصياً. . ويعد إسلام المغول في هذه المرحلة من انتصاراتهم الكبرى أكبر رد على الذين يقولون «إن الإسلام ينتشر بحد السيف». .

فهؤلاء الذين دوخوا الدنيا بأسرها، تفتحت قلوبهم لدعوة الإسلام، بمجرد أن تفهموها، وأقبلوا عليها إقبالاً عظيماً. .

والإسلام دين من عند الله. . يوافق الفطرة الصافية ويملأ جوانب الإنسان بالأمن والتسليم لله. .

والإسلام دين يحبب في السلام. . ويدعو إليه. .

العزة في الإسلام

العزة والآباء والقناعة، من أسمى القيم التي أرشد إليها الإسلام.. وجاءت دعوة الإسلام هذه من أجل الإنسان، ليحتفظ ببشريته وحريته وكرامته وطمأنيته.. وكلما كان الإنسان مهذباً: كان مقدراً الروح الإنسانية، والإنسان المهذب لا ينزل بإنسانيته إلى الهون، ولا يقبل أبداً أن يتمرغ في الوحل. بل يسعى في استمرار إلى وضع إنسانيته في الوضع اللائق.. قال تعالى في سورة المنافقون: ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾. فالعزة صفة ذاتية لله جلّ شأنه، وخلق للرسول عليه الصلاة والسلام، وتخلق يجب أن يتخلق به المؤمنون. والرسول عليه الصلاة والسلام كان خلقه القرآن الكريم، ولذا كان من خلقه القناعة التي هي مصدر غنى النفس وعزتها، أما المؤمنون فيقول العلماء، قد طلب إليهم ـ بعد ما استقر رأيهم، واحرزوا النصر على عدوهم بفتح مكة، وبعد ما تلا ذلك من جمع شمل الأنصار والمهاجرين في وحدة واحدة وأصبحوا أمة متأخية ـ أن يمارسوا الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس. وليس جهاد النفس إلا حملها على أن تتخلق بخلق القناعة لتصل إلى مستوى العزة والكرامة الإنسانية.

وترى المعاجم العربية أن العزة: حالة مانعة للإنسان من أن يغلب، من قولهم: أرض عزاز، أي صلبة. وتعزز اللحم: اشتد وعز، كأنه حصل في عزاز من الأرض يصعب الوصول إليه. والعزيز الذي يقهر ـ بفتح الياء، ولا يقهر ـ بضم الياء ـ قال تعالى في سورة آل عمران ﴿ هو العزيز الحكيم ﴾.

والعزة يمدح بها تارة، ويذم بها تارة أخرى كعزة الكفار، قال تعالى في سورة ص: ﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾، ووجه ذلك أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين هي الدائمة الباقية، وهي العزة الحقيقية. والعزة التي هي للكافر، هي التعزز. وهي في الحقيقة ذل لأنه تشبع بما لم يعط. قال تعالى في سورة مريم: ﴿ ليكونوا لهم عزاً ﴾ أي ليمتنعوا به من العذاب، وقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ معناه: من كان يريد أن يعز فإنه يحتاج أن يكتسب من الله العزة، فإنها له. وقد تستعار العزة للحمية والآنفة المذمومة وذلك في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم ﴾. ويقال: عز على كذا أي صعب. قال تعالى في سورة التوبة ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾. وعزه: غلبه، يقال: من عزبز أي من غلب سلب. قال تعالى في سورة ص ﴿ وعزني في الخطاب ﴾، أي غلبني أو صار أعز مني في المخاطبة والمحاجة.

والعزة في الإسلام صورة عملية سلوكية تدفع إليها الإرادة القوية والعزم الصادق، والاستطاعة على التكييف. والعزة سعي لتحقيق المثل العليا في الحياة، ليكون للمسلمين تاريخ وحضارة وأمجاد. وتاريخ المسلمين في الماضي والحاضر والمستقبل، لم يقم ولن يقوم على تحقيق الشهوات والتواكل والاستجداء، ولكنه يتجسد بالبطولات والتضحيات والعلم والمعرفة، ومواكبة التقدم الحضاري، ومن كان يريد العزة فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره، يطلبها من عند الله وفي ظلال الإيمان بالله. لأن الإيمان بالله ليس دعوة إلى الإنعزال عن الحياة، وإنما حقيقة أساسية من حقائق الوجود، والإيمان في ذاته كفيل بتعديل القيم والموازين، وتعديل الحكم والتقدير، وتعديل النهج والسلوك وتعديل الوسائل والأسباب. ويكفي أن تستقر العزة بمفهومها ومدلولها وفلسفتها في قلب الإنسان المؤمن لتقف به أمام الدنيا كلها بمن فيها وما فيها، عزيزاً كريماً ثابتاً، غير هياب ولا وجل سواء وقع على الموت أم وقع الموت عليه. والمعتز بالله لا يحني رأسه لمخلوق مهما كان، ولا لعاصفة طاغية. والمعتز بالله لا يقبل الاتخاص، ولا

يرضى بالابتذال. والعزة في الإسلام حقيقة تستقر في القلب وتملأ الإنسان المؤمن، قبل أن يكون لها مظهراً في دنيا الناس. حقيقة تستقر في القلب، فيستعلى بها المسلم على كل أسباب الذلة والضمة والذوبان والإنسلاخ، حقيقة يستعلى بها المؤمن على نفسه الأمارة، ويستعلى بها على شهوات النفس، استعـلاء على القيد والذل، واستعلاء على الخضوع الخانع. ومن تحقق له هذا الاستعلاء، وارتشف من ينابيع الإسلام، وارتبط بالإسلام أخلاقاً وسلوكاً وفكراً ونظاماً. فلن يملك أحد وسيلة لإذلال إرادته وإخضاع ذاته..

والعزة في الإسلام ليست كما يتوهم البعض عناداً جامحاً يستكبر على الحق ويتشامخ بالباطل، وليست طغياناً فاجراً وجعجعة وتشدقاً وحذلقة، وليست إندفاعاً يخضع لشهوة ويرتمي في تبعية، وليست قوة عمياء تبطش بلا حق ولا عدل، وليست فلسفة جاهلية وإدعاء.. إذن وبكل تأكيد وبدون مجانبة للصواب، يمكن أن نقول أن فلسفة العزة في الإسلام، خضوع لله وخشوع وخشية وتقوى ومراقبة وعمل. ومن هذه المعاني وبها ولها ترتفع الجباه وتصمد النفوس، وبهذه المعاني كان المسلمون أقوياء في كل شيء، تهيب العدو بأسهم، وخاف المنافقون سلطانهم، ولم يحدثنا التاريخ أن المسلمين يوم أن كانوا قوة، قبلوا أن يكونوا تابعين لأي قوة بشرية. والأمم كالأفراد، وما الأفراد إلا لبنات في بناء المجتمع الواسع، والفرد في الإسلام جزء من المجتمع الإسلامي يكمله ويكتمل به ويعطيه ويأخذ منه، ويحميه ويحتمى به. والأمة التي تفضل أو ترضى بالتواكل والاستجداء والكسل والتبعية، وتترك الاعتماد على النفس والجهاد في سبيل الله، أمة لا تستحق الحياة الحرة الكريمة، والحياة الحرة الكريمة لا تتأتى لأمة دون ثمن، والثمن هو التضحية، ولا يتأتى لأمة أن تشق طريقها في الحياة، وأن تستعيد وجودها وكرامتها، وتعيد صنع حياتها، دون أن تحاول جاهدة أن تبني نفسها بناء يتفق مع الاعتداد بالذات. وقد يكون من المسلمات البديهية: أن ضعف الأمة في جوهرة وجذوره ليس ضعفاً في قوة الدفاع أو في القوة العسكرية، وإنما يكمن

في ذل النفوس وشعورها بالضعف. وقد يكون من المسلمات البدهية أيضاً: أن فقر الأمة في جوهره وجذوره ليس فقراً في السلاح والمعدات أو فقراً في المال والإمكانيات، وإنما يكمن في فقر النفوس وعجزها، وضعف الإرادة واضطرابها. ولهذا جاء الإسلام بتعاليمه وآدابه وإرشاداته، داعياً المسلمين إلى التمسك بالعزة وبناتها من الرفعة والتسامي والمنعة، وأبناء عمها من «الآباء والشمم والاستعلاء». واستطاع الإسلام في قوة أن يغرس هذه المعاني في النفوس المؤمنة بالله المعتدة بعقيدتها، وقد لاقى المؤمنون الأهـوال والصعاب، وتجشموا المشاق والمخاطر. بصبر وعزم وحزم، وخاضوا غمار الحروب، واقتحموا ساحات القتال بإيمان وشجاعة واضعين في الاعتبار أن الجبن لا يطيل أجلاً، والإقدام لا ينقص عمراً، قال تعالى: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾، وقال تعالى: ﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلاً ﴾. وانطلاقاً من هذه المفاهيم والقواعد، إنطلق المسلمون في سبيل الله والعقيدة، إنطلاقة أنقذت الإنسانية من وهدة الضياع والخسران، وأزالت الأصفاد والقيود التي كانت تقف حجر عثرة أمام تقدم الإنسانية واستتباب الإسلام.. وإن الحياة تتطلب من الأمة الإسلامية أن تطعم التاريخ خبر الشهادة والاستشهاد، وأن تغرس أقدامها في طريق السؤدد والمجد، وأن تربي الأجيال على الاعتزاز بالعقيدة وحب الخير والإصلاح والصلاح..

الإيمان والنصر

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ ويم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾[5].

---

(١) سورة الحج، آية ٤٠، ٤١.

(٢) سورة محمد، آية ٧.

(٣) سورة الأنفال، آية ٩.

(٤) سورة الأنفال، آية ١٢.

(٥) سورة التوبة، آية ٢٥، ٢٦.

وقال تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾[1]. . .

هذه الآيات البينات. . تبين في وضوح. . نصر الله سبحانه وتعالى للمؤمنين العاملين في سبيل العقيدة والدين. وإيمان المؤمنين. . قوة لا تدانيها قوة في شد الأعصاب وشحن الدماء، بالتضحية والفداء، ونكران الذات.

والإيمان نور يملأ قلوب المؤمنين بحقهم وعقيدتهم. ومن هنا لم يكن الإيمان وظيفة تمتهن. . وإنما قوة تحيل الإنسان إلى إنسان. . بالمعنى السامي للإنسانية وكانت الجيوش الإسلامية لإيمانها بالله تسير، وعناية الله تحوطها. .

وما ذلك إلا نتيجة للإيمان الصادق، ولما كان عليه الأفراد من طاعة الرؤساء المؤمنين. وما كان عليه القادة من الإنقياد لكتاب الله، وسنة رسوله محمد عليه الصلاة والسلام. .

ولقد بلغ الأمر أن كان صبيان المسلمين يتسابقون إلى درج أسمائهم في جنود الجيش الإسلامي. . وكان يحزنهم إن ردوا. . فإذا كبر الطفل ركب الأهوال وهو عالم بها، معتقداً أنه سينال إحدى الحسنيين.

وهكذا كان المسلمون يتجهون للجهاد مستهدفين نصر دين الله، وإعلاء كلمته. . لا يبالون بما يحول دون ذلك من الأخطار. .

ولست أبالي حين أقتل مسلماً
على أي جنب كان في الله مصرعي

(١) سورة الأحزاب، آية ٩.

وهذا عبد الله بن رواحة يخطب في جنده، يشجعهم على لقاء العدو، حينما فزعوا من كثرة عدده وعدته في غزوة (مؤتة).

فيقول: يا قوم إن التي تكرهونها لهي الشهادة التي خرجتم تطلبونها.. والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد، ولا بكثرة سلاح.. لقد رأيتنا يوم بدر، ما معنا إلا فرسان ويوم أحد ما معنا إلا فرس واحد.. إنطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور عليهم فذلك ما وعدنا الله ورسوله، وليس لوعده خلف وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان[1].

وروى الواقدي عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال شهدت يوم مؤتة.. فلما دنا المشركون منا رأينا ما لا قبل لأحد به، من العدة، والسلاح، والكراع، والحرير والديباج والذهب.. فبرق بصري.. فقال لي ثابت بن أرقم: يا أبا هريرة كأنك ترى جموعاً كثيرة؟ قلت: نعم قال إنك لم تشهد بدراً معنا، إنا لم ننتصر بكثرة[2].

وروي أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، حدثنا عن شأن ساعة العسرة في غزوة تبوك..

فقال عمر: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً، وأصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه. ثم يجعل ما بقي على كبده..

فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله عودك في الدعاء خيراً فادع الله لنا..

فقال: أو تحب ذلك؟ قال: نعم..

فرفع رسول الله ﷺ، يديه إلى السماء فلم يرجعها حتى قالت السماء

---

(١) صور من حياة الرسول ص ٥١٧.

(٢) صور من حياة الرسول ص ٥١٦.

أي أذنت بالمطر ـ فأطلت، ثم سكبت، فملئوا ما معهم.. ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[1]...

وكان العلاء بن الحضرمي.. قائد الجيش المسلمين الذي وجهه أبو بكر إلى البحرين في حروب الردة.. وسلك القائد بالجيش طريق الصحراء إلى غايته.. فلما جن الليل أمر الناس بالنزول، حتى لا يضلوا في تيه الصحراء، فلما استيقظوا وجدوا أن الإبل تركتهم بما عليها من الزاد والماء ولم يجد الجند ما يقاتلون به أو يطفئون ظمأهم.. هنالك ركبهم من ألهم ما ركبهم..

وأيقنوا الموت.. فأوصى بعضهم إلى بعض..

وتحدث العلاء القائد إليهم.. فقال: ما هذا الذي ظهر فيكم، وغلب عليكم؟.

وأجاب الناس: كيف نلام، ونحن إن بلغنا غداً لم تحم شمسه حتى نصير حصيراً..

ورد عليهم العلاء، ممتلىء القلب إيماناً:

أيها الناس لا تراعوا... ألستم مسلمون؟ ألستم في سبيل الله؟ ألستم أنصار الله؟

قالوا بلى.

قال: فأبشروا.. فوالله لا يخذل الله من كان في مثل حالكم..

وبعد أن صلوا الفجر.. نصبوا في الدعاء، حتى إذا بزغت الشمس، لمع لهم سراب ثم أخر، ثم ثالث..

قال رائدهم: إنه الماء.. فمشوا حتى نزلوا عليه فشربوا، واغتسلوا، ونالوا منه ما شاؤا. وتعالى النهار، فإذا أبلهم تعود إليهم من كل صوب، وتبرك..

---

(١) صور من حياة الرسول ص ٥٦٢.

فقام كل رجل إلى رحله فركبه.

ثم إن أبا هريرة وصاحباً له، من أهدى العرب بهذه البلاد.. كرا راجعين إلى المكان الذي كان به الماء، فإذا هو لا غدير به، ولا أثر للماء فيه.

وقال الذي له علم بهذه الأنحاء.. إنه يعرف هذا المكان، وأنه لم ير به ماءً ناقعاً قبل اليوم.. ومن ثم قيل: إنما كان ذلك من آيات الله تعالى[1].

ونحن إذا نظرنا إلى سجلات التاريخ الإسلامي، نجد أن المسلمين الأولين، قد أدوا رسالتهم على خير ما يكون الأداء وبلغوها في أمانة وإخلاص. فكانوا أولى قوة وأولى بأس شديد.. تهيب العدو بأسهم، وخاف سلطانهم..

كانوا أقوياء في عقيدتهم بالله.. وأقوياء في تمسكهم بالقرآن، وتعاليمه اجتماعياً واقتصادياً، وسياسياً. وبهذا كان المجتمع الإسلامي عزيز الجانب.

فما أجدرنا أن نعمل بإخلاص وصدق ووفاء.. وما علينا إلا استمرار الجهاد في سبيل الحق.

وعن يزيد الأصم قال سمعت معاوية بن أبي سفيان يروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة»[2].

---

(١) انظر كتاب (أبو بكر)، للدكتور هيكل ص ١٨٦.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، جـ١٣ ص ٦٧. والحديث متفق عليه، واللفظ لمسلم.

المصادر

أولاً

١ ـ **القرآن الكريم**.

٢ ـ **الألوسي**، السيد محمود شكري، «بلوغ الأروب في معرفة أحوال العرب»، ط الأميرية ١٩٢٥ م.

٣ ـ **الأزرقي**، أبو الوليد محمد بن عبد الله «أخبار مكة»، ط مكة المكرمة ١٩٥٢ م.

٤ ـ **ابن جرير**، أبو جعفر محمد، «تاريخ الرسل والملوك»، جـ ١ صـ القاهرة ١٩٦٠ م.

٥ ـ **ابن جرير**، أبو جعفر محمد، «تاريخ الرسل والملوك»، جـ ٢ ط القاهرة ١٩٦٨ م.

٦ ـ **ابن جرير**، أبو جعفر محمد جامع البيان في تأويل القرآن ط دار المعارف ١٩٦٥ م.

٧ ـ **ابن سعد**، أبو عبد الله محمد الطبقات الكبرى، ط الأميرية بمصر.

٨ ـ **ابن القيم**، شمس الدين محمد بن أبي بكر، أعلام الموقعين، ٤ مجلدات ط السعادة ١٣٧٤ هـ.

٩ ـ **ابن كثير**، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، جـ ١، ٢ ط القاهرة ١٩٣٢ م.

١٠ ـ **ابن كثير**، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن الكريم ط الشعب ١٩٧١ م.

١١ ـ **ابن هشام**، أبو محمد عبد الملك السيرة النبوية، ت السقا ط الحلبي ١٩٧٥ م.

١٢ - **ابن عبد الوهاب**، الإمام عبد الله بن الشيخ محمد مختصر سيرة الرسول، ط السلفية ١٣٧٩ هـ.

١٣ - **التوحيدي**، أبو حيان الأمتع والمؤانسة، ط لجنة التأليف والنشر.

١٤ - **أمين**، الأستاذ أحمد، فجر الإسلام، ط لجنة التأليف ١٩٥٨ م.

١٥ - **البيهقي**، أبو بكر أحمد بن الحسين، دلائل النبوة، ط المجلس الأعلى ١٩٧٠ م.

١٦ - **البهي**، الدكتور محمد، الإسلام واتجاه المرأة المسلمة، ط دار الاعتصام، القاهرة.

١٧ - **جاد المولى**، محمد أحمد، أيام العرب في الإسلام، ط المكتبة الإسلامية بمصر.

١٨ - **حسن**، الدكتور حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ط دار النهضة، ١٩٥٩ م.

١٩ - **الحامد**، عبد الله حامد، شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة، ط الرياض، ١٣٩٠ هـ.

٢٠ - **الذهبي**، الحافظ شمس الدين، دول الإسلام، ط الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٤ م.

٢١ - **السايح**، أحمد عبد الرحيم، من وحي السماء ط المجلس الأعلى، ١٣٩٤ هـ.

٢٢ - **السايح**، أحمد عبد الرحيم، الهجرة إنطلاقة وبناء ط المجلس الأعلى، ١٣٩٨ هـ.

٢٣ - **السايح**، أحمد عبد الرحيم أضواء على الحضارة الإسلامية ط دار اللواء السعودية، ١٤٠٢ هـ.

٢٤ - **الشامي**، الصالحي الدمشقي، سبل الهدى والرشاد المجلد من ١ - ٦ ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة.

٢٥ - **الشكعة**، الدكتور مصطفى، معالم الحضارة الإسلامية، ط دار العلم للملايين، ١٩٧٣ م.

٢٦ - **الأصبهاني**، أبو الفرج الأغاني، ط دار الكتب المصرية.

٢٧ - **صادق**، الأستاذ سعد، الهجرة نصرة للإسلام، ط المجلس الأعلى ١٣٩٤ هـ.

٢٨ ـ **العقاد**، عباس محمود، المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، ط دار الكتاب اللبناني.

٢٩ ـ **عثمان**، الدكتور عبد الكريم، معالم الثقافة الإسلامية، ط مؤسسة الأنوار بالسعودية.

٣٠ ـ **العيسوي**، أبو يوسف يعقوب بن سفيان، المعرفة في التاريخ ٣ مجلدات ط بغداد ٧٦ م.

٣١ ـ **غلوش**، الدكتور أحمد أحمد، الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، ط دار الكتاب اللبناني، ١٣٩٩ هـ.

٣٢ ـ **الفيروزا بادي**، مجدد الدين محمد بن يعقوب بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ٦ مجلدات ط المجلس الأعلى سنة ١٣٩٣ هـ.

٣٣ ـ **الفاكهي**، أبو عبد الله محمد بن إسحاق تاريخ مكة ط مكتبة خباط ١٩٦٤ م.

٣٤ ـ **القرني**، عبد الحفيظ فرغلي، المسؤولية في الإسلام ط المجلس الأعلى ١٣٩٩ هـ.

٣٥ ـ **هيكل**، محمد حسنين، حياة محمد، ط دار القلم بالقاهرة.

٣٦ ـ **وهبة**، المستشار توفيق علي، دور المرأة في المجتمع الإسلامي ط دار اللواء بالرياض ١٣٩٨ هـ.

٣٧ ـ **وهبه**، المستشار توفيق علي، الجهاد في الإسلام ـ دراسة مقارنة بأحكام القانون الدولي العام ط دار اللواء بالرياض ١٤٠٢ هـ.

ثانياً

١ ـ **الجهاد**، كتاب المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، طبع الأزهر ١٣٨٨ هـ.

٢ ـ **مكانة العلم**، كتاب صدر عن الأوقاف المصرية، ١٦ شوال ١٣٩٢ هـ.

٣ ـ **نظام الحرب في الإسلام**، الأوقاف المصرية محرم ١٣٩٢ هـ.

٤ ـ **دروس من غزوة تبوك**، الأوقاف المصرية جماد الأول ١٣٩١ هـ.

٥ ـ **هجرة النبي**، الأوقاف المصرية ذو الحجة ١٣٨٨ هـ.

٦ ـ **الدين والحياة**، وزارة الأوقاف المصرية جماد الآخر ١٣٩٢ هـ.

٧ - المقاومة الشعبية، (مكتبة الإمام)، وزارة الأوقاف المصرية سبتمبر سنة ١٩٧٣ م.
٨ - مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، المجلد الأول إلى الثامن السعودية.
٩ - مجلد الجندي المسلم، الرياض وزارة الدفاع مجلد عام ١٣٩٦ هـ.

١٠ - مجلة التضامن الإسلامي - مكة المكرمة، المجلد ٢٨ السعودية.
١١ - تاريخ العالم الإسلامي، طبع وزارة المعارف السعودية ١٣٩٣ هـ.
١٢ - إستراتيجية العالم الإسلامي، طـ وزارة الأوقاف، السعودية.
١٣ - مجلة رسالة الإسلام، العراق.
١٤ - مكتبة الإمام، طـ وزارة الأوقاف المصرية.
١٥ - الهداية، إصدار الشؤون الدينية، تونس.

فهرس الموضوعات



